صراحة
من زمن التنوهيج

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

العدد (1783) السنة السابعة
الخميس (29) نيسان 2010

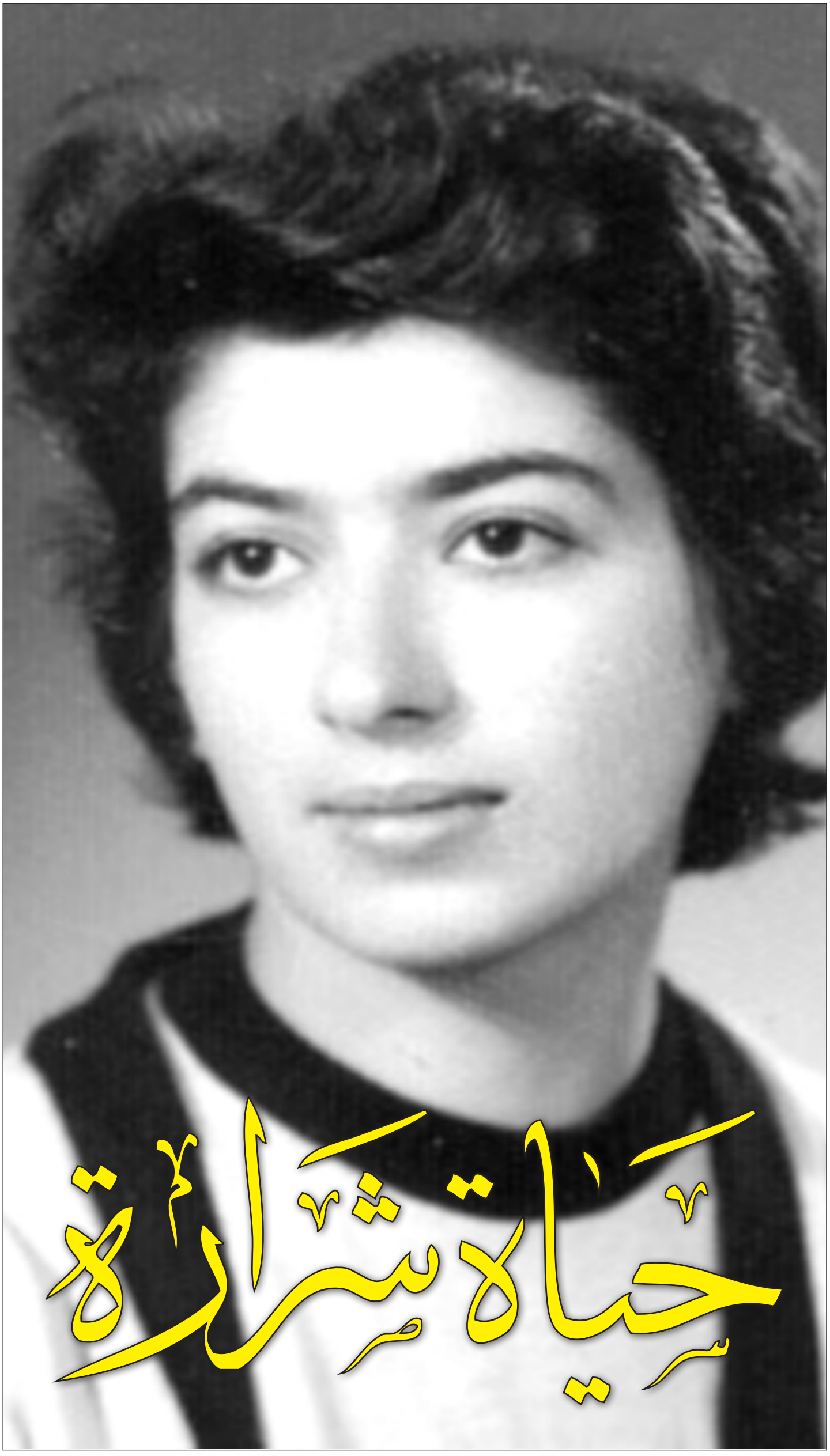

حياة شرارة

حياة شرارة الثائرة الصامتة

4

انتحارالاديبات . . هل هو رفض للموت بالموت؟

8

الرافدون
من زمن التوهج
العدد (1783)
السنة السابعة
الخميس (29)
نيسان 2010

في (اذا الايام اغسقت) . . حياة شرارة . . صورة الواقع والحياة الروائية

بلقيس شرارة

الالتزام.. سياسياً واجتماعياً

نشأت «حياة شرارة» في جو أدبي سياسي، و تشبعت في الأجواء الأدبية و السياسية منذ طفولتها، فغرست فيها اللقاءات الأدبية التي كانت تقام في دار والدنا، حَبها و تتبعها إلى الأدب و الشعر و القصة و الرواية و النقد. فأصبحت نهمة في القراءة و استيعاب ما كانت تقرأه. كما جعلتها اللقاءات السياسية، تدرك و تؤمن منذ نعومة أظفارها، أن هنالك ظلماً و إجحافاً في المجتمع من خلال ما تعرض له والدنا، من اعتقال و سجن، انعكسا بدورهما على العائلة أيضاً. أدّت هذه الأحداث بها، إلى البحث عن أداة أو منظمة تجد فيها المنهاج المناسب الذي تتفاعل معه بإثارة شعورها بالإجحاف، و وجدت في الحزب الشيوعي تلك الأداة المناسبة التي كانت تنشدها. فانتمت إلى الحزب الشيوعي في السادسة عشرة من عمرها، و وجدت في الفكر الشيوعي الحلول التي كانت تتوق لها في تغيير مستقبل الشعب، وحل مشاكله، و الانتقال به إلى عالم آخر يسوده العدل و الإنصاف، و هو انتقال محّتم كما يعتقد الحزب الشيوعي. فهذا الانتشاء بالحياة الموعودة و الحلم بخلاص البشرية من البؤس و الإذلال هي النظرة الخلاصية التي لاذت بها المنظمات التقدمية، لأنها تعطي رؤية إلى المستقبل و خلاصها من الوضع الذي هي فيه. و لأنها منظمات واضحة في منهجها و هدفها، فهي مريحة من الناحية النفسية، و بها ضبط للذات و إعطاء هوية.

يظهر الالتزام في المجتمع بأشكال متعددة، و كثيراً ما يكون متضارباً ضمن المجتمع الواحد. لأن نفسية الإنسان مركبة، تجمع أحياناً تناقضاً بين الالتزام و التفرد وكرامة الذات. فهناك الالتزام الديني و الطائفي و القبلي و السياسي. أما الالتزام السياسي فهو على نوعين: ١ – الالتزام السياسي الصارم، الذي يتمثل بحزب البعث أو الحزب الشيوعي أو الأحزاب الأصولية الأخرى. فلا يمكن للفرد في هذا النوع من الالتزام السياسي أو الديني الصارم، أن يخرج عن قرارات الحزب، و يتفرد عن الآخرين، و إنما يجب أن يكون من ضمن المنظومة الحزبية و يتنازل بذلك عن إرادته و حريته. و تصبح الذات خاضعة لنظام الحزب و ذلك واضح في جميع المجتمعات الشمولية. ٢ – أما الالتزام الآخر فهو الالتزام السياسي العقلاني، الذي يتمثل بالأحزاب الديمقراطية، كالحزب الوطني الديمقراطي في العراق. و يتصف الالتزام السياسي العقلاني، في أنه يسمح للفرد بالتفرد ضمن التضامن الاجتماعي، و لذا فانه يعتمد حرية المساءلة و التسوية. فكل قضية معرضة إلى تسوية للتوصل إلى حلول لصالح الطرفين، و هو واضح في أحزاب الدول الغربية، كما نشاهد ذلك في حزب المحافظين أو حزب العمال في إنكلترا و أحزاب الدول الديمقراطية الأخرى في أوربا و أمريكا، لأنها مجتمعات مدنية تؤمن بالتعددية و تعتمد على تفرد الفرد و تضامنه في المجتمع.

اللون الوردي لراجيف غاندي

و عندما زار راجيف غاندي، رئيس الوزراء الأسبق في الهند، الولايات المتحدة في منتصف الثمانينيات، سُئل عن علاقته بالاتحاد السوفيتي، إذ كان الاتحاد السوفيتي يعتبر آنذاك رمزاً للشر في عهد الرئيس ريغن، عندما أطلق عليه اسم « دولة الشر »، أجاب راجيف غاندي: لا يوجد عندنا لونان فقط، الأبيض و الأحمر، و إنما عندنا لون ثالث، و هو اللون الوردي. و يعني بذلك الحل الوسط و التسويات السياسية. يفتقد الالتزام السياسي الصارم إلى الحل الوسط و لا يقبل التعددية، فحياة الفرد خاضعة للقرارات الحزبية، و لا يمكنه الحياد عنها، بل تبتلع أيدلوجية الحزب الفرد و يصبح آلة مسخرة بتطبيقه لتلك الأيدلوجية.

و هذا ما تعرضتْ له«حياة» عندما كانت عضواً في الحزب الشيوعي، فكانت تُطبق كل ما يمليه عليها الحزب من أوامر. و لم تشعر في يوم من الأيام، بالتناقض بين إرادتها و إرادة الحزب إلا بعد مرور أكثر من عقد و نصف تقريباً، بعد أن نضجت فكرياً و اعتزلت العمل السياسي.

من موسكو الى بغداد

عندما عادت «حياة» من موسكو إلى بغداد، انخرطت في سلك التعليم الجامعي، و لكن لم تمر إلا بضعة أعوام حتى تم تسييس التعليم العالي، من قبل حزب البعث الذي سيطر على جميع مرافق الدولة، و نصّب نفسه الممثل الشرعي للسلطة، و تعرض أساتذة الجامعة و منهم «حياة» إلى ضغوط شديدة و تهديد لمستقبلهم، و وجدوا أنفسهم أمام خيارين لا غير، أما ترك الجامعة أو الانتماء إلى حزب البعث. و نتيجة لمثل هذا الضغط السياسي، انتقل بعض الرفاق من الالتزام الشيوعي إلى الالتزام الآخر، و ذلك عندما وجدوا أن التزامهم الأول يتعارض مع مصلحتهم. و تلونوا بكل الألوان الممكنة، و أصبحوا جزءا من القطيع الذي اخذ يصفق و يعزف لحن الحزب الواحد و الرؤية الشمولية، كالأستاذ «وجدي» في رواية « إذا الأيام أغسقت» حيث أصبح من مثقفي السلطة، و تنازل بذلك عن وظيفة المثقف المستقل و المقاوم لمجرى الأحداث التي تفرضها عليه السلطة في الكلية. لأن الأستاذ الذي صار عضواً في حزب البعث أصبح يتمتع براتب أعلى و امتيازات كبيرة، وألقي على عاتقه الدور الأمني و البوليسي الذي يؤديه العميد أو رئيس القسم في الكلية كما هو واضح في رواية « إذا الأيام أغسقت».

و لكن «حياة» لم تسمح لها كرامتها التي تمسكت بها كتمسك الشعرة بأهداب العين، بالانتقال من التزام إلى التزام آخر، لأن الالتزام عندها هو مقياس أخلاقي، و ظلت مستقلة في موقفها البعيد عن تأييد السلطة و عن المثقفين التابعين لها، مقاومة لضروب التسلط في جميع أشكاله، و لازمتها الكرامة كظلها، حتى في الظروف القاسية التي عنها. و معروف إن الفئة المثقفة هي الفئة الأولى التي تتعرض عادة للضغط السلطوي في المجتمع الشمولي. و ما يهم السلطة المستبدة هو إخضاع ضمائر تلك الفئة أو تهديدها بمعيشتها و شل تفكيرها. و لا تخاف السلطة المستبدة على شرعيتها أكثر من المثقف الحر المستقل التفكير الذي يكّون خطراً عليها، و التاريخ مملوء بالشواهد على ذلك.

الحزب الشمولي والحياة الجامعية

لذا قاست «حياة» كثيراً في حياتها الجامعية، عندما رفضت الانتماء إلى حزب البعث، مؤكدة بحزم موقفها المستقل و التفرد الذي لا يتحمله الفكر التوحيدي و الأنظمة الشمولية، مما أدى إلى تعرضها إلى صعوبات، و خلق مشاكل كثيرة لها، أثناء وجودها في الجامعة. و عندما تضاعف العنف و اضطهاد الناس الذين لا يخضعون إلى فلسفة حزب البعث في تلك الفترة، أتخذ قرار بالتخلص من جميع الأساتذة الذين لا ينتمون للحزب. كانت «حياة» على رأس القائمة، عندما نقلت إلى مشروع صناعي في مدينة الديوانية. و لكن

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1783)
السنة السابعة
الخميس (29)
نيسان 2010

أعيدت إلى الجامعة بعد فترة قصيرة، حيث لم يجدوا أستاذا يشغل منصبها، و لكنها تعرضت في الوقت نفسه إلى المراقبة الدائمة من قبل مكتب ضابط أمن الجامعة، و أصبحت من المشكوك في ولائهم، بما في ذلك فتح الرسائل التي كانت تُبعث لها من قبل عائلتها. و كانت تُقرأ من قبل ضابط أمن الجامعة، قبل أن تقرأها «حياة»، بالرغم من أنها بدرجة أستاذ. إذ ليس هنالك قدسية و احترام أعز ما يخص الفرد، و هو قراءة مضمون الرسائل الخاصة به، و التدخل بخصوصيته، بهذا الشكل المفضوح و النابي. و لأن الفكر الشمولي يفترض تنظيماً اجتماعياً موحّداً و فكراً موحّداً، لذا يطلب الالتزام الصارم، و العمل على خضوع الآخرين لأرادته. و يتم بذلك استغلال الفرد و سحق تفرده. فتفتيش رسائل الأساتذة هو جزء من الإجراءات لتوحيد الفكر، و يُعتبر خطراً أي سلوك خارج عن تفكير المنظومة الحزبية، بل يعتبر جسما غريبا، يجب مراقبته و اقتلاعه و القضاء عليه. وبذلك تحولت المؤسسات العلمية إلى مراكز أمنية ضمن الجامعات و انتشر فيها المخبرون بحجة حماية الأمن الوطني من الأعداء الذين لا يؤمنون بفلسفة الحزب.

الصورة الروائية

نجد ذلك واضحاً في رواية « إذا الأيام أغسقت» في سلطة و سطوة العميد التعسفية، حيث تنتقل هذه النزعة التسلطية إلى رؤساء الأقسام، ثم الأساتذة و الطلاب، فهي سلطة تراتيبية هرمية، أو تدرج هرمي من الأوامر التي لا يجوز تخطيها، و الخروج عنها في الفكر الملتزم. و الهدف الرئيس في الفكر الموحّد و المجتمع الشمولي هو إسكات المثقف المستقل، و ذلك واضح في الإرهاب و الالتجاء إلى العنف الذي وصل إلى قمته في جامعة الموصل، حيث أفرد سجن خاص في داخل حرم الجامعة، و غرف للتحقيق، لمعاقبة و سجن الطلبة و الأساتذة المشكوك في ولائهم. و تعطينا «حياة» صورة واضحة عن ذلك الجو، و الرقابة الذاتية الذي أصبح يحملها الفرد في ساحة العمل، و الجامعة، في رواية « إذا الأيام أغسقت»: « نحن نقول الآن نعم عندما يرفض ذهننا فكرة أو عملاً مقترحاً علينا، و نبتسم عندما تتجهم نفوسنا و ترغب بالعبوس، و يلوح علينا الهدوء عندما يتملكنا الغضب» (ص ١٨٢). إنه وصف للهيمنة الفوقية و التسلط و الاستبداد و غياب العدالة، في كبت مشاعر و أفكار المثقف و خضوعه التام، و سحق للفكر، ليصبح آلة مسيرة، وظلاً للسلطة.

إيقاعات الحياة اليومية على الرواية

عرضت «حياة» عدداً متنوعاً من الشخصيات و الأبطال في رواياتها، يتراوح عددهم على ست و عشرين شخصية. و كل واحد هو نسيج من عدة شخصيات في المجتمع الجامعي و العراقي. و لذا تؤلف كل شخصية في الرواية، تركيباً و مزيجاً لهذه الشخصيات التي لا تمثل شخصية معينة بالذات، صوّرتها الكاتبة من خلال ملاحظتها الدقيقة، للواقع الذي عاشته، و أضافت إليه من تجربتها الشخصية و ملاحظتها للواقع. فالكاتب يبدأ بصياغة الكلمات و الجمل و يحبكها في نسيج متين.

جسدت «حياة» براويتها حقيقة الأستاذ الذي كان رمزاً إلى المعرفة و العلم، و أصبح ألعوبة بيد النظام. فصورت الصراع النفسي الذي يعانيه، عندما يشعر أن لا كيان له، من خلال أحداث الرواية التي يتعرض لها الأساتذة من الإهانة والإذلال، في انتظار فتح باب الكلية لهم، و إجبارهم على الاشتراك بالمسيرات، و التصفيق عند ذكر أسم رئيس الجمهورية في اجتماع العميد، و سوق الأساتذة و الطلبة في الاشتراك في الحرب العراقية الإيرانية، و التدخل في رفع درجات طلاب القبول الخاص.

يكّون شخصياته و يشكّل أبطاله كعجينه، أثناء عملية الابتكار، يدخل في أعماق نفسيتها، فيعريها تارة، و يلبسها من خياله ألوانا، و ظلالاً مختلفة تارة أخرى، فتظهر لنا شخصيات حية نابضة بالحياة. لذا فان رواية « إذا الأيام أغسقت» رواية واقعية، أحداثها من صلب الحياة اليومية، و ليس هنالك تصعيد روائي لأثاره مشاعر القارئ، و إنما يعرف القارئ نهاية الرواية منذ الصفحات الأولى. و ليس هنالك مفاجآت مذهلة أو أحداث عنيفة متطرفة أو عقدة متأزمة، كما هي الحال في القصص البوليسية مثلاً، و لكن هنالك سرد للأحداث من خلال شخصيات الرواية التي يصل بعض أبطالها إلى لحظات التمزق و الانهيار، و ذلك عندما تتمزق المفاهيم و تضيع القيم بعنف غير معقول، من خلال حادثة أو عمل يكون السبب في تقويضها. استطاعت الكاتبة من خلال ملاحظتها الدقيقة، أن تصور الإذلال و الإهانات اليومية التي كان يتعرض لها أساتذة و موظفو الجامعة، بإصغائها و مشاركتها أحاديثهم، التي تدور عن كيفية الحصول على المواد الغذائية، و القلق الذي كان يساورهم عندما يعجزون عن سد رمق عائلاتهم، و اضطرارهم لبيع سياراتهم، أو العمل كسواق تكسي في ساعات فراغهم. و أضافت إليها من تجربتها عندما شعرت بحصار السلطة لها و أغلقت أبواب النشر أمامها. و هو أقسى أنواع الحصار على الكاتب و المؤلف. و لذا عندما سُئل الأستاذ «أكرم» أحد أبطال الرواية، إن كان يواصل الكتابة؟ «ستدهش إذا قلت لك إنها أصبحت تشبه مياه المستنقع الراكد! ماذا تعني الكتابة إذا أصبحت بلا غاية! أعني إذا لم تستطع أن تنشر ما تكتبه و توصله إلى الناس! ما قيمتها إذا ظلت محفوظة في أدراج مكتبك أو على الرف؟.. إن كل ما يمكن أن آمله هو أن تنشر نتاجي بعد موتي، إذا حالفها الحظ! » (ص ٣٢٢). تسجل هذه الرواية الأجواء المعتمة، الخانقة، نفسياً و فكرياً و سياسياً و اقتصادياً، أجواء غير طبيعية مّر بها العراق، ولا زال يعاني منها في المرحلة الراهنة، خاصة الفئة المثقفة منها، من المبدعين و المفكرين، التي أول ما تطالها السلطة، أن يكون هدفها الرئيس هو إسكات المثقف في جميع المجالات، و يشمل البلدان التي تحت حكومات دكتاتورية.

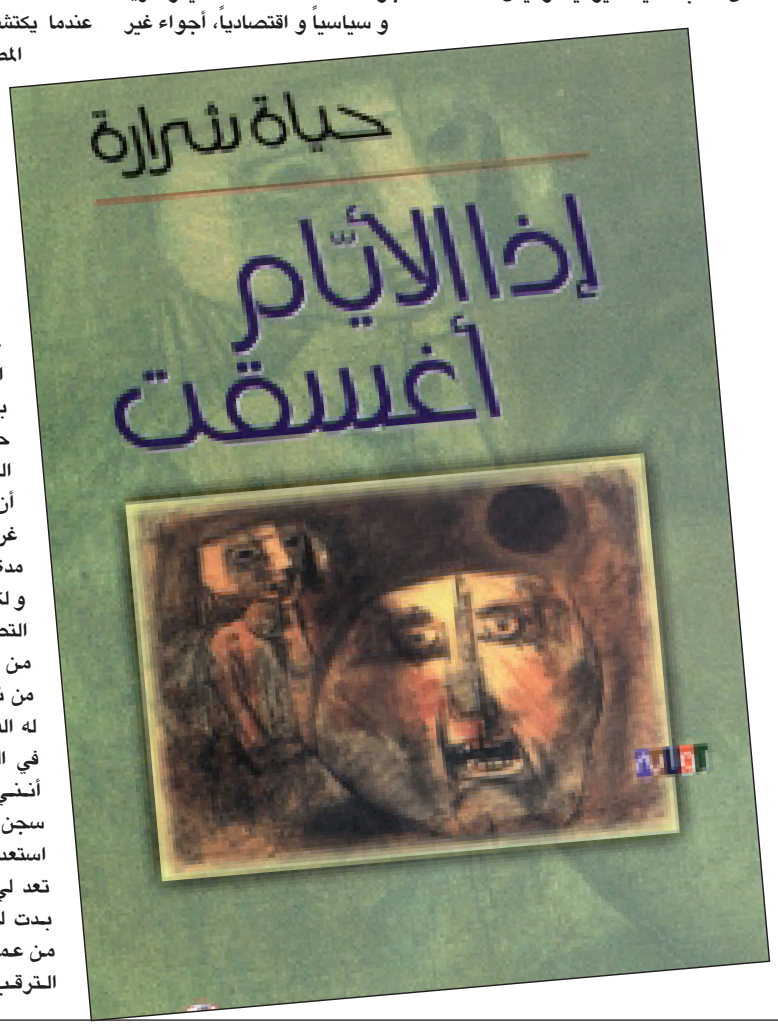

الحرية المفقودة

جسدت «حياة» براويتها حقيقة الأستاذ الذي كان رمزاً إلى المعرفة و العلم، و أصبح ألعوبة بيد النظام. فصورت الصراع النفسي الذي يعانيه، عندما يشعر أن لا كيان له، من خلال أحداث الرواية التي يتعرض لها الأساتذة من الإهانة والإذلال، في انتظار فتح باب الكلية لهم، و إجبارهم على الاشتراك بالمسيرات، و التصفيق عند ذكر أسم رئيس الجمهورية في اجتماع العميد، و سوق الأساتذة و الطلبة في الاشتراك في الحرب العراقية الإيرانية، و التدخل في رفع درجات طلاب القبول الخاص. فيشعر الأستاذ بصغر شأنه، أمام السلطة و ضعفه و عدم قدرته على أن يقف أمام هذا التيار من الإرهاب. كما تطرقت الكاتبة في روايتها، إلى أحداث ربما يتصورها القارئ البعيد عن أحداث العراق، من صنع الخيال لا صلة لها بالواقع، و كأنها تتحدث عن عالم غريب، لا يمت إلى المجتمعات المدنية بصلة، بل عالم قائم بحد ذاته، له قوانينه و تعاليمه الخاصة به. إذ أصدرت السلطة، مرسوماً شملت المسؤولين، من الوزراء و رؤساء الدوائر الحكومية و أساتذة الجامعة، في تحديد وزنهم، حسب مقاس أصدرته السلطة، بالنسبة لطول و وزن الفرد، و عليهم ألا يتخطوا ذلك المقاس عندما يحين موعد الوزن السنوي. و عندئذ يقادون كما تقاد الخراف إلى المسلخ. صوّرت «حياة» القلق الذي ينتاب الأساتذة قبل الوزن، و إحساسهم بالذل فوق الميزان، و المعاناة النفسية التي تهيمن عليهم، عندما يكتشفون أنهم تخطوا الوزن المطلوب، فيشعرون أن سيفاً مسلطاً على رقابهم، سيف الإهانة والإذلال، بتخفيض رواتبهم الشهرية، و درجتهم الإدارية و العلمية. و وصفت سيكولوجية ذلك الفرد الذي اُستلب حقه حتى في التصرف في بدنه، عليه أن ينضوي تحت التعليمات، التي لا تكتفي بقولبة فكره، وإنما قولبة حجم بدنه. و شعر بطل الرواية «نعمان» عندما وجد أن وزنه أقل بنصف كيلو غرام : وكأن حملاً ثقيلاً حمله مدة طويلة قد ألقي عن كاهله. و لكنه شعر أيضاً بالاختناق و التصدع النفسي بعد الانتهاء من الوزن، فاضطر إلى القفز من نافذة الغرفة عندما سمحت له الفرصة، و عّبر عن شعوره في الفقرة التالية: «شعرتُ أنني قفزت من فوق جدران سجن إلى الفضاء الواسع و استعدت حريتي المفقودة، و لم تعد لي علاقة بتلك البناية التي بدت لي مختلفة، عما يجاورها من عمارات. توارى كل القلق و الترقب في داخلي، و لكنني لم أعد أنا نفسي، فقد تصدع شيء في أعماقي و انهار، و جثمت أنقاضه على مشاعري و بهتت هويتي الشخصية و اتخذت سمات دخيلة عليها، لا تنسجم مع صفاتها المألوفة. ألقيت نظرة على المبنى قبل مغادرته، كان عدد الأساتذة قد أزدادَ فيه و كانوا يقفون كالأسرى الذين لا يعرفون متى ستنقضي محنتهم و يقرر مصيرهم»(ص ١٦٢).

يعّرف علماء السيكولوجي، أن الخوف غريزة تساعدنا على البقاء، و نوع من الحذر عند الإنسان حينما يكون مصدر الخوف معروفاً. فجميعنا نخاف لدغة الأفعى، نحاول أن نتجنبها لأننا نعلم مصدر الخوف. أما عندما تنتشر «رائحة الخوف»بعموميتهاكما وصفتها«حياة»، لا يستطع الفرد عندئذ، في الاستمرار في حياته اليومية بصورة طبيعية، لأنه يجهل مصدر الخوف، فهو منتشر في الهواء الذي يستنشقه يومياً، عندئذ يصبح رعباً. و الرعب يسيطر عادة تدريجياً على الفرد، و تصبح الرقابة الذاتية جزءاً من كيان الفرد في ساحة العمل و الجامعة و يرافقه في مختلف مجالات الوجود و يسيطر على نفسيته حتى في خلوة داره. هذا ما عبّرت عنه «حياة» في تصويرها للخوف عندما ينقلب إلى رعب: « أطل الخوف أمام ناظري في البداية كبرق خاطف يسبي الأبصار ثم توارى. غير أنه لم يَغب نهائياً، بل ظل يظهر بين آونة و أخرى بدرجات تختلف في قوتها و ارتفاعها و عمقها. كان يتخذ شكل دخان رمادي كثيف يلتف و يتصاعد في دوائر مرئية ثم ينتشر عرضاً و طولاً، و يتسلل إلى النفوس و ينبت في حناياها و يرقد فيها و يترك على نحو مزمن آثارَه الرمادية الكابية» (ص ٦٨). كما وصفت في فقرة أخرى الاختلاف بين الخوف الغريزي و الرعب. وعبر كتاب غربيون عن هذا الرعب الذي مارسته بعض السلطات في أوربا الغربية في عقد الثلاثينيات، كالكاتب ألشيكي«كافكا»، كما عبر عنه كتّاب في الاتحاد السوفيتي كالكاتب الروسي«صولجينتسن» في عدد من رواياته. و عندما سئل الموسيقار الروسي «جستاكوفيج» في إحدى زياراته إلى الولايات المتحدة: بأي درجة تضع نفسك بالنسبة لستالين ؟ أجاب: أنا بمنزلة الدودة. بينما أخذ التاريخ ينسينا دور ستالين كمنظّر سياسي، و لكن بمرور الزمن أصبح الموسيقار «جستاكوفيج» من أعظم ما أنتجته عبقرية القرن العشرين في الموسيقى.

لم تستطع أن تستمر «حياة» في التدريس في الجامعة بعد رفضها بإصرار دائم الانتماء إلى حزب البعث، و خسرت بذلك عملها في الجامعة و أغلقت أبواب النشر أمامها و وجدت جميع أبواب العيش موصدة أمامها. أحست بأنها محاصرة من جميع الجهات و أنها تعيش في سجن، و لم تبق لها حتى كوة مضيئة تساعدها على الاستمرار في الحياة. و لكنها أنهت كتابة رواية «إذا الأيام أغسقت» قبل رحيلها عن هذا العالم بأربعة أشهر، لتترك لنا وثيقة أدبية صريحة عن تفرد الفرد و بيان مشاعره، و مجابهة حقيقية لسطوة السلطة على الفرد و سحقه، و هي صراحة لم تزل نادرة في الأدب العراقي.

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1783)
السنة السابعة
الخميس (29)
نيسان 2010

د. صباح نوري المرزوك

حياة شرارة الثائرة الصامتة

كان للنعي الذي رفعته كلية اللغات بجامعة بغداد على جدران مجمع الكليات في الوزيرية سنة ١٩٩٧م أثره البالغ في نفوس من قرأ هذا النعي وعرف عنوانه، لاسيما انه يتعلق بأستاذة فاضلة ومترجمة متمكنة في ميدانها وهي الدكتورة حياة شرارة، أستاذة الأدب الروسي. وكان الحديث يومئذ همسا يدور حول انتحار الدكتورة مع ابنتها مها، هل هو انتحار فعلي ام ان يدا خفية من وراء ذلك، ولكن ما جاء في رواية (اذا الأيام أغسقت) التي كتبتها الراحلة وقامت بنشرها وكتابة المقدمة لها شقيقتها بلقيس شرارة يؤكد ان الحدث هو انتحار بسبب فقدان الأمل والإحساس بانها أمام منعطف الهاوية عندما فقدت الحياة مغزاها وهدفها، لان زوجها الطبيب محمد صالح سميسم الذي كان ضمن قائمة الشهداء الذين أعدمهم النظام السابق.

قام السيد خالد حسين سلطان كونه واحدا من المعجبين بأدب الراحلة ان اعد هذا الكتاب عنها وقامت دار الخالدي للطباعة والنشر في بغداد بنشره في (١٣٨) صفحة من القطع المتوسط.

كتبت شقيقتها بلقيس عن سيرة حياة الفقيدة بالتمهيد للحديث عن مدينة النجف كونها مدينة ذات أجواء دينية معروفة وصدرت فيها صحف دعت الى الإصلاح الاجتماعي وفي هذا الجو ولدت حياة سنة ١٩٣٥م وكان والدها فرحا بها رغم ان المجتمع كان لا يشجع على التمجيد بولادة الإناث، فقد كان يطلق عليها (ثالثة الاثافي) لأنها البنت الثالثة وكونها هادئة صامتة في طبعها، وتنقلت حياة مع أبيها الأستاذ محمد شرارة المدرس في ثانوية الناصرية ورافقته بالسفر الى لبنان، وبعد عودتها أصيبت بمرض التايفوئيد لكنها تعافت، أظهرت حياة موهبة أدبية منذ طفولتها وأحبت الشعر الحديث وكان ذلك بتأثير من والدها، وبعد انتقال الأب الى بغداد في منتصف الأربعينيات كان بيته منتدى وملتقى لكثير من الشعراء والأدباء والمفكرين حيث كان اللقاء أسبوعياً وكانت تستمع عن كثب الى تلك الآراء والطروحات والمناقشات لاسيما ان بدر شاكر السياب ولميعة عباس عمارة ومحمد مهدي الجواهري وحسين مروة ونازك الملائكة وبلند الحيدري من رواد هذا الملتقى.

أكملت حياة دراستها الأولية والثانوية في بغداد وتعذر عليها دخول جامعة بغداد لصعوبة الحصول على شهادة حسن السلوك بسبب الانتماء السياسي فتركت بغداد وذهبت إلى سوريا ومنها سافرت الى مصر والتحقت بقسم اللغة الانكليزية بجامعة القاهرة.

ثم اختارت السفر إلى موسكو عام ١٩٦١م وظلت تدرس فيها حتى عودتها الى العراق ١٩٦٨م، وكانت تقضي وقتها في الدراسة والمطالعة، تعينت في كلية الآداب ثم نقلت الى وزارة الصناعة لأسباب سياسية ثم نسبت الى العمل كمترجمة في إحدى المشاريع الروسية في الديوانية ثم انتقلت للعمل في كلية اللغات في قسم اللغة الروسية وقد أشرفت على إصدار كتابي والديها على المتنبي والدراسات الإسلامية وقد نشرت عددا من الكتب التي ترجمتها عن الروسية : ديوان الشعر الروسي ١٩٨٣م، مذكرات صياد ١٩٨٤م، روديون من تأليف تورغينيف ١٩٨٥م، الأفكار والأسلوب ١٩٨٦م، مسرحيات بوشكين ١٩٨٦م، عش النبلاء لتورغينيف ١٩٨٧م، وقد اتجهت في ترجمة جميع اعمال الكاتب الروسي تورغينيف وأكملت ترجمة روايتين من اعماله ثم بدأت في العمل الثالث الا انها أصيبت بخيبة أمل لعدم توافر ناشر لهذه الكتب، وقد كتبت ذكرياتها التي نشرتها أختها.

وقد كتب الشاعر العراقي محمود حمد المقيم في الإمارات قصيدة عنها نشرت في صفحات ٧٦.٧٤، ثم كتب الكاتب جمال كريم موضوعا بعنوان: حياة شرارة سيرة حافلة بالعطاء الإبداعي والإنساني، أضاف فيها الى ترجماتها: فن الترجمة، تشيخوف بين القصة والمسرحية، وصفحات من حياة نازك الملائكة ولها ديوانان من الشعر مخطوطان هما: قصائد قديمة وشفق الفجر.

أكملت حياة دراستها الأولية والثانوية في بغداد وتعذر عليها دخول جامعة بغداد لصعوبة الحصول على شهادة حسن السلوك بسبب الانتماء السياسي فتركت بغداد وذهبت إلى سوريا ومنها سافرت الى مصر والتحقت بقسم اللغة الانكليزية بجامعة القاهرة.

وكتبت الدكتورة نادية غازي بحثا بعنوان حياة شرارة في نصوص مزدوجة في السيرة والسيرة الذاتية ركزت على ما نشرته حياة وما عاشته من ذكريات ملقية الضوء على المشروع الثقافي للكاتبة، ثم كتب الباحث نبيل العطية مقالة بعنوان (فرادة في الإبداع وتعدد في النوع) أشار فيها الى ان حياة دارسة عميقة ودراستها قائمة على التحليل والغوص الجاد وراء الظواهر وفحص لمفردات المنجز الإبداعي بطريقة أخاذة وهذا يتضح في كتابها (تولستوي فنانا)، ولم يستغرب شاعريتها كونها عاشت البيئة الشعرية التي وفرها والدها الأديب، كما تناولت سميرة الوردي روايتها بدراسة بعنوان (من أشعل النار فيها)، كما قدم معد فياض وتركي الحمد ومحمد الأحمد قراءة لروايتها (اذا الأيام أغسقت) تعرضوا فيها الى فنية هذه الرواية ودراسة سايكولوجية المؤلفة.

وقد اختتم الباحث كتابه بمراجعة قدمتها بلقيس شرارة عن الرواية المذكورة أعلاه وقد وصفتها بانها رواية هواء الخوف العراقي.

لقد سد هذا الكتاب الذي أعده خالد حسين سلطان فراغا في المكتبة العربية اذ تناول فيه ما يقدم فكرة متكاملة ضمن وجهة نظر مختلفة عن أستاذة أكاديمية ومترجمة أصيلة وإنسانة فاضلة.

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1783)
السنة السابعة
الخميس (29)
نيسان 2010

حياة شرارة . . الموت من أجل الحياة

محمد الأحمد

ما بين متن الرواية ومقدمتها مدّ من العبير، وجسر من التوثيق، ونهج من التواصل. حيث ما فات أن يُذكر في الرواية المكتوبة في العراق عن سوء حال الإنسان العراقي، قد ذكرتهُ المقدمة التي كتبت خارج أسوار العراق. تلك الرواية الوثيقة بطبعتها الأولى صادرة عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠٠٠، فكتبت للرواية مقدمة (بلقيس شرارة) الشقيقة المغتربة في مدينة (كنكستن) الولايات المتحدة، و ألحقتها بملحق تعريفي ادرج فيه قائمة الكتب المؤلفة، والمقالات والكتب المترجمة المنشورة. كم هي بديعة سيرة الأديبة الأستاذة (د. حياة شرارة)، ولكن سيرة موتها هو الذي كان اكثر نبلا، ورقيا، واحتجاجا..

لانها رفضت الحياة، الخالية من الكرامة، (فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان) وراحت تدون روايتها التي خير سيرة بطولة، ومسيرة تحد عظيم، ومكابد. كانت الرواية تبرر أسباب ذلك الانتحار الذي تكتم يومها الإعلام، محاولا أن يجعل من ذلك الاحتجاج البطولي أمرا غير ذي بال..

تسرد أحداث الرواية مشقة أستاذ جامعي في عشرة فصول.. ما بين بيته وفصله الدراسي، تحت نير الاستغلال، والثقل البالغ الذي حفر الظهر بنير أقسى من السياط، وسحق منه العظم.. أيام حصار جائر تقصد فيه الحاكم الدموي البشع (الصادم) أن ينال من كل شهادة علم هو لم يستطع أن ينلها (كونه لم يحصل حتى على الإعدادية).. فما كانت شهادة الأستاذ الجامعي هي إحدي أهدافه ليوجه إليه كل قسوته، بغية تفريغها من محتواها المنير في المجتمع، فقصدته في اللقمة والهواء، وقيدته بحثالة من الأراذل تراقبه، وراحت شرطته السرية تعدّ عليه الأنفاس. أينما يذهب تطل عليه تريد الاطلاع حتى على أحلامه التي بقيت غاية لا تدرك، فباع أغلى ما يملك، حتى الكتب وتشرد وراء ألف نجمة شاردة إلى وراء الشمس..

بقي المثقف ـ يقصده الراوي ممثلا بذاته.. عندما ألف الضياع الذي يلف بجيله من الأساتذة الجامعيين الشرفاء، بل شمل حتي الطلبة بكل أطيافها، وبدد الحرمات الجامعية، إذ تخللت درس العلم..

سوسة الرشوة الفاسدة، وصارت ديدناً يقوض كل المثل التي يحاول البطل الرواي المحافظة على عطرها الذكي في كل خطوة، متحديا كل ذلك الجبروت، ومنطلقا.. في بحثه ودرسه، يدون مسلة الانهيار، ولا يبالي بالمعاول التي ما أن يمر يوما حتى يجدها تحفر قدامه، وحوله تريد طمره.. (لم ينج منه أي مخلوق، حتى أولئك الذين كانوا أداته المباشرة في القول والتنفيذ، فقد كانوا اشد ذعرا من غيرهم فلأنهم يحيون بالقرب منه، ويمارسونه صباح مساء، وكانت آثاره الدبقة تلتصق بثيابهم، وتعبر عنها مشيتهم والتفاتاتهم المتجهمة القاسية اللامعة بالشر والتهديد، وهي أول ما يلاحظه المرء فيهم ـ ص ٨٥ ـ الرواية)..

فتارة يأتي فصل الطريق إلى الجامعة، حافلا، دقيقا، ومدونا لعلامات ذلك الزمن. وتارة أخرى محملا بالجدية في أروقة الجامعة، وممراتها.. حيث التدوين الدقيق هو وجه النضال واحد، فيبقى في كل زمان ومكان، وهو ضد التعسف في الرأي، وقمع الرأي الآخر بتجاهله، أو بتسفيهه، أو تأجليه إلى غير فاعليته.. والمبادئ دائما هي المسيرة النزيهة البعيدة عن الوصولية نحو تحقيق آمال الشعوب، والنضال هو إزاحة الخوف القديم المترسب الكامن استقرارا من جراء نهج متواتر بالبشاعة.

فتطلب من الرواية أن تكون بفعل متواز يستند إلى ديمقراطية شجاعة مارستها الكاتبة (د. حياة شرارة) تعادل تكميم الأفواه، ويستند إلي بوح حقيقي من اجل عبور كل ما سنه ذلك العهد المخلوع..

و الإزاحة مارستها الرواية/ الراوي بحيوية بطلها المحوري، حيث بقي يحلم، ويحلم بحرية، بالتغير، وبتسنين الدستور الراسخ، والثابت الذي لا يستثني أحدا، ولا يقيم فرقا بين هذا، وذاك.. لا على أساس عرقي، أو اثني.. الكلّ متساو كأسنان المشط.. الكلّ مشمول في الحق الشرعي للمعتقد، وصراحة الرأي.

و السيادة.. الكلّ يعمل من اجل العراق و إنسانه ابن اقدم الحضارات.. بالتأشير نفورا من كل السلبيات المقيتة.. كمخلفات الحقبة التي استطالت كل يوم بالف عام، ومسخت اقدس المفاهيم في الطموح نحو التحضر، والابتهاج، ونحو الارتفاع عن ما يقيد العقل، بأبشع السلاسل..

حيث تواصلت حملات في طمره، وفي نفيه داخل مكانه.. بكل همجية، فحرم المواطن العراقي من أية قائمة يكثر فيها المسموح، وكثر الكثير من قائمة الممنوع، الإزاحة الروائية تعني الفعل المعاكس للتمسيخ الذي كان متواصلا بغسيل الدماغ، والفعل المعاكس، هو إعادة الثقة الإدارية وفسح المجال أمام الطاقات الإبداعية في تحقيق الهوية العراقية الراسخة بأنها ابنة شرعية لأعرق الحضارات، و إن ابن الرافدين كان منذ أول ولادته متواصلاً بعطائه المتمدن رغم ما فرض عليه من تريّف، وتزييف في أنظمته الإنسانية والتشريعية...

وكما يذهب إليه الناقد فولفانغ آيزر (العمل الفني، كل من القيم لا ينضوي تحت البنية بل يشكل جوهرها، و كل المحاولات التي قصدت إلى إخراج القيم من الأدب، سوف تفشل لان القيمة هي جوهر الأدب. ولا يمكن فصل الدراسة الأدبية عن النقد الذي هو عبارة عن حكم تقويمي).

فكانت أزمة المثقف شاخصة (اقترنت بالإذلال المعيب، الذي خلق خوفا مريعا فيٍ حالما سمعتُ به، وكأنما ظهرت في طريقي فجأة ودون أدنى توقع.. أفعى كبيرة وأخذت بحركة سريعة، تكاد تكون خاطفة نحوي ـ ص ١٢٨ الرواية)..

ودونت (د. حياة شرارة) ما كان يسحقها، في كل خطوة، بكل ما يتكرر من المشهد المتتابع العنيف، فالأستاذ الجامعي (نعمان) بطل الرواية، كان ينبغي عليه أن يكون بطلا قائدا، وليس تابعا فالحرية المنشودة هي عزيمة تعني إعادة زرع ما كان مجتثا بقصد التغريب، وضد التدّجين...

فـ(كانت مقالاته وكتبه معروفة بأصالتها، وتحليلها الدقيق للأحداث، وتفسيراتها الفطنة للتفاصيل العادية و إعطاء دلالاتها الخفية، مما جعلها تتسم بتناول جديد للموضوع خارج الفهم التقليدي الدارج له، ولهذا كان دوره متميزا في الندوات، والمؤتمرات العلمية التي تعقد داخل البلاد وخارجها والتي توجه له الدعوات دائما لحضورها ـ ص ١٣١ ـ الرواية)...كما دونت (بلقيس شرارة) ما كان عليها من إيضاح.. ظنا منها أن الرواية لم تكن تحمل كامل هويتها الثقافية، بل كامل احتجاجها..

لقد ثبتت راوية (إذا اغسقت الأيام)، بين قائمة روايات عراقية غير قابلة للنسيان، ووقفت النسخة الوحيدة، بيننا، من طبعتها الأولى، التي وصلتنا إلي العراق، وبين أيام جبروت الحاكم، كالتحدي الكبير.. فمثلها كان يومها يقيم عليه النظام ألف جريمة وفق ما يخاف منه.

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1783)
السنة السابعة
الخميس (29)
نيسان 2010

د . حياة شرارة في : نصوص مزدوجة في السيرة و السيرة الذاتية

د. نادية غازي العزاوي

(١)

على مدى حلقات متفرقة ومقالات متباعدة زمنيا نشرت د. حياة شرارة نصوصاً من نمط خاص يمكن نعتها بالنصوص (السيَريّة المزدوجة)، تداخلت فيها على نحو حميم وقائع مجتزأة من حياتها ومن عاشت معهم وواكبتهم وعرفتهم عن كثب، وقد شكل اهتمامها بهذا النمط من الكتابة ومثابرتها عليه حالة خاصة وملحوظة جداً ضمن توجّهات الأدب النسويّ العراقيّ الحديث، وان توزع جهدها في هذا الجانب على أكثر من كتاب ومقالة، نذكر منها – على سبيل التمثيل لا الحصر:

أ – صفحات من حياة نازك الملائكة، دار الريس، بيروت ١٩٩٤.

ب – مقدمتها لكتاب والدها (محمد شرارة) الذي جمعته وحققته: (المتنبي بين البطولة والاغتراب)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨١.

ج – (تلك ايام خلت)، ثلاث حلقات من ذكرياتها، مجلة الأقلام: ع٧/١٩٨٧، ع ١/ ١٩٨٨، ع ٩/ ١٩٨٩.

د – ندوة الشعر في بغداد الأربعينيات، ملحق جريدة النهار، عدد ٢٩٩، تشرين الثاني ١٩٩٧ (١).

ومن المفارقة أن لا يمهلها الزمن – الذي ظلت تخشى جبروته ومصائبه – الوقت الكافي لاتمام (مشروعها/ حلمها) في كتابة سيرة ذاتية كاملة.

ويفترض هذا الجنس من الكتابة الابداعيّة في مَن يتصدى له توافر نزعتين متلاحمتين لديه على مستويْ الوعي و المعالجة أو المنظور والأداء: نزعة تأريخية تؤمن بأنّ استرجاع الوقائع الوسيلة المثلى لتقييدها وانقاذها من الضياع والشتات والنسيان، ونزعة ابداعية تتحرّى جماليات اللغة وطرائق السرد التي تنقل من خلالها تلك الوقائع.

وقد تهيّأ لها هذا كما تهيّأت لها عوامل نجاح للتميّز في هذا المجال من الكتابة: فقد اختزنت حياتها الشخصية وواقع اسرتها خاصة عناصر اثراء وفرت لها مادة ممتازة للاستذكار، بدءاً من الأسرة اللبنانيّة الأصل التي سكنت العراق واحبّته وتجنسّت بجنسيته، وولادتها في (النجف)، والتجربة السياسية: انتماءً واعتقالاً ونفياً ومطاردة بشخص والدها وعمها، ثم انخراطها المبكر هي نفسها في صفوف الحزب الشيوعي العراقي وتولّيها أعباء ومسؤوليات التنظيم و التحامها بالأحداث السياسية ((وهي ما زالت بريعان الصّبا، مندفعة بعاطفة جارفة لمحاربة التعسّف والظلم ومتطلعة الى حرية الانسان وتحطيم قيوده)) حتى انها ((رُشّحت ولم تبلغ السابعة عشرة من العمر لحضور مؤتمر السلام الذي عقد في براغ عام ١٩٥٢)) (٢).

واتاح لها بيت العائلة منذ نعومة أظفارها فرصة تاريخية ثمينة للقاء شعراء وكتاب ومثقفين وسياسين كانوا يتوافدون على دارهم في مجالس ادبية خاصة: (السياب، نازك الملائكة، بلند الحيدري، الجواهري، لميعة عباس عمارة، أكرم الوتري، آل الملائكة، ناجي جواد الساعاتي، عزيز جعفر أبو التمن، كاظم السماوي، حسين مروة، حسين مردان..... الخ) (٣)، كما وضعتها تجربة الدراسة في مصر وجهاً لوجه أمام أعلام قرأت لهم فكان لقاؤها المباشر بهم هناك وما تكوّن لديها من انطباعات عنهم مادة لبعض تلك الذكريات: (طه حسين، رشاد رشدي، سهير القلماويّ..... الخ) (٤).

ثم دراستها في موسكو لمدة ست سنوات، وقدعزّز ذلك ثقافتها وهي التي عُرفت بولع مبكر ونهم في القراءة مع ما اتّصفت به شخصياً من دقة المراقبة والتأمّل وحافظة ممتازة سهلت لذاكرتها اختزان الملامح والأحداث والوقائع مع نزعة توثيقية لتقييد النصوص والأخبار الى حدّ التنقير والتدقيق والهوس أحياناً، كتبت عنها أختها بلقيس: ((كانت حياة تجلس دائماً في زاوية من غرفة الضيوف وبين يديها الصغيرتين دفتر تسجّل فيه ما تستمع اليه في تلك اللقاءات الشعرية من قصائد جديدة..... حفظت حياة معظم شعر بدر ولميعة ونازك وكانت تترنّم بقصائدهم وهي لم تبلغ بعد سنّ الثانية عشرة))(٥)، وتصف هي نفسها هذه المرحلة من تأسيسها الثقافي قائلة: ((وأحصل أخيراً على شهادة الابتدائية، ولم تكن الشهادة بحدّ ذاتها تهمّني ألبتة ولم تكن الدراسة تروق لي عموماً لأنّ موادها أشبه بالقيود التي تغلّ حيوية فكري وأمانيه وتحصر المعرفة ضمن أطر وأسيجة..... واذا بي لا أقبل فقط على قراءة تلك الكتب التي راودت ذهني بل كنت أنكبّ عليها انكباباً واعتكف عليها اعتكاف الناسك في صومعته..... تملؤني نشوة روحية غامرة)) (٦). ثمة مؤثرات اخرى اغرتها بهذا الضرب الساحر من الكتابة اعني تحديدا كتاب (الأيام) لطه حسين الذي مثّل محطة مهمة في حياتها فقد قرأته وانفعلت به كثيراً بما فتح أمامها من عوالم انسانية وحكايات غنية متشابكة، وبسحر لغته العذبة، وبتجسيده عظمة الارادة الانسانية ولذلك ظلت تذكره باحتفاء واضح: ((وأقرأ (الأيام) وتنحفر صورته بخطوط عميقة في ذهني أشبه بالصورة المنحوتة بمنقاش..... ويمثل أمامي شخص طه حسين فلا أرى فيه مجرد أديب عظيم بل أراه مارداً عملاقاً لا يختلف في قوته عن هرقل أو شمشون الجبار))(٧) فهل عمق التأثير الذي وصفته بـ (الحفر) في وعيها ولا وعيها والانطباع الضخم المتولد من قراءة هذا الكتاب كانا وراء تسلل لفظة (الأيام) الى عنوانات نصوصها السيريّة ((تلك أيام خلت) و (اذا الأيام أغسقت) ؟ ربّما.

× × ×

(٢)

فيما يتعلق بـ(البواعث) لا تكشف نصوصها هنا عن الباعث الحقيقي وراء مشروعها في كتابة السيرة والسيرة الذاتية، بل تكتفي بالتصريح بالمؤثرات الخارجية المباشرة التي تستفزّ الذاكرة وتوجعها في مواقف معينة فتبدأ بالانثيال والسرد، مهما تنوعّت طبيعة هذه المستفزات: (لقطة تلفزيونية على وجه قديم منسيّ)، (أغنية حزينة توقظ المواجع)، (أطلال مكان قديم).....الخ، ويتم الافصاح عن هذه المؤثرات عادة في مداخل تلك النصوص.

ولكنّ الباعث الداخلي الحقيقي الذي يشدّها الى الكتابة السيريّة – التي تبلورت لديها اتجاهاً واضحاً ملحاً مع منتصف الثمانينيات من القرن العشرين حيث الانتكاسات السياسية والموت الذي اختطف والدتها ووالدها وزوجها ليتركها فريسة الوحدة، والأهم من هذا كله الموت الجماعي، فالوطن بكل تأريخه وجلاله وأجياله

الباعث الداخلي الحقيقي الذي يشدّها الى الكتابة السيريّة – التي تبلورت لديها اتجاهاً واضحاً ملحاً مع منتصف الثمانينيات من القرن العشرين حيث الانتكاسات السياسية والموت الذي اختطف والدتها ووالدها وزوجها ليتركها فريسة الوحدة، والأهم من هذا كله الموت الجماعي، فالوطن بكل تأريخه وجلاله وأجياله يسقط صريعاً في محارق الحروب

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1783)
السنة السابعة
الخميس (29)
نيسان 2010

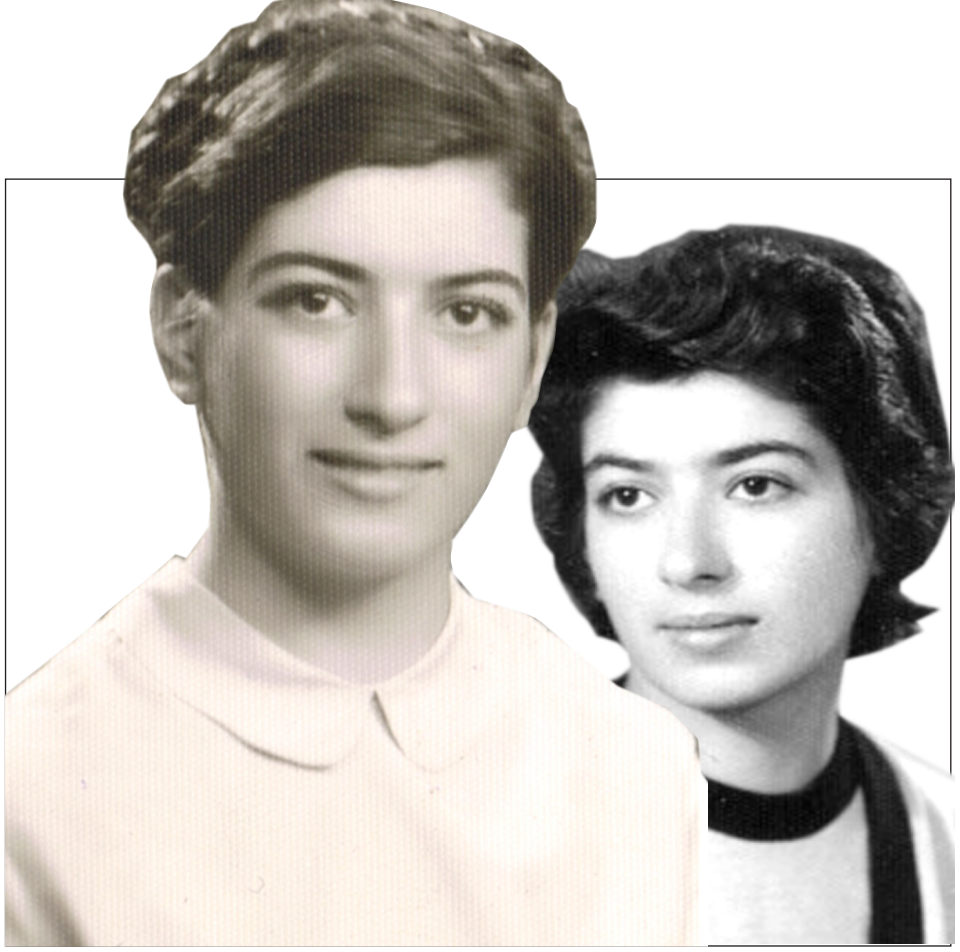

يسقط صريعاً في محارق الحروب – اقول: يظلّ الباعث الداخلي مسكوتاً عنه في داخل نصوصها، ويتم الكشف عنه خارجها وبخاصة في رسائلها الشخصية اذ تضع يدها على جمرة المشروع: فالزمن يسحق ويفني الأشياء والقيم والناس والذاكرة، تقاوم الفناء باحياء الماضي السعيد المجلل بالنجاحات والمسرات:

تقول في رسالة لأختها:

((أحبّ أن أكتب ذكرياتي عن الأحداث التي مرّت بنا ففيها أشياء تستحقّ التسجيل وأصبحت تاريخاً من ذكريات الماضي، لا بسبب مرور الزمن عليها فقط وانما من جراء التغيرات الكبيرة في القيم والمفاهيم التي نعيشها بحيث أصبحنا جيلاً له مكوّناته الخصوصية..... جيلاً له تفكيره المتميز ونظرته الخاصة وأشعر بأننا أفضل من الجيل الحالي والناشىء))(٨).

×××

(٣)

المكان بتفصيلاته وجغرافيته حاضر بقوة في نصوصها السيريّة، وغالباً ما يكون عندها رديفاً للحظة انبجاس الذكرى، بضربيْه: المكان الأليف الدافىء وتمثله أمكنة الماضي السعيد ولاسيما (بيت العائلة)، والمكان الغريب الموحش وتمثله بشكل متكرّر أمكنة الحاضر بما تنوء به من مظاهر الشيخوخة والتشويه أو الزوال – وغالباً ما تصف امكنة الماضي بأنها غدت أثراً بعد عين – مّما يضاعف من احساسها بالغربة والاغتراب: ((مررت بالثانوية المركزية للبنات التي تقع اليوم في شارع الجمهورية، انني لا أكاد أصّدق أنها كانت دار المعلمات سابقاً..... يغشاني الاستغراب..... كانت ذات باحة فسيحة وبناء واسع تختلف عمّا يحيطها من دور ضيّقة صغيرة، وتختلف أيضاً وجوه الطالبات وزيهنّ عن اللواتي أراهنّ اليوم على رصيف الشارع الواسع..... تلفني كآبة مضنية وتعتصر نفسي لتغيّر وتبدّل كل ما كان حميماً اليّ وأمسى تاريخا غابراً ليس الاّ..... انّها لعبة السنين..... فأنا أحمل على كتفي خمسين عاماً بقضّها وقضيضها))(٩).

ولئن كانت الحياة لعبة (زمان) ولعبة (مكان) فانّ سرد الذاكرة هو المصل المضاد لأنّه يواجه اللعب العبثيّ بلعب عبثي مغاير: بالايهام بامكانية ايقاف تدفق الحاضر وتجميد معطياته لمصلحة استعادة الماضي حيّاً مرة ثانية بكل محمولاته: شخصيات عزيزة (غالباً ما تكون رحلت عن دنيانا)، أحداث سعيدة، أمكنة محبّبة.....الخ.

انّ استرجاع الذاكرة لا يستند الى عودة موضوعية حياديّة للوقائع، ولكنه ينطلق من لحظة انتقائية محفوفة عندها بمشاعر جياشة من الغبطة، كانت تترجمها – غالباً – بعبارات وصفيّة دالّة مصحوبة بطقوس ورؤىً سحرية واسطوريّة كقولها: ((وطارت بي الذكريات كما يطير بساط الريح الى دارنا..... في سبع قصور في الكرادة الشرقية))(١٠).

وتكرر هذا في نص ثان: ((وطفت على وجهي ابتسامة عفوية فرحة فقد حملني بساط الزمن ورجع بي الى السنين الخوالي والى تلك المنازل التي عفا عليها الدهر وعبث بملامحها وغير معالمها..... فاذا بي اعود الى شارع ابي قلام حيث دار اسرة الملائكة والى الرستمية حيث سكنت عائلتنا))(١١)، وفي نصّ آخر: ((وها أنا ذي أجدني وقد عادت بي المخيلة الى بداية الدرب الطويل وكأنها طير من طيور الحكايات الأسطورية أو دليل من أدلاّئها الخرافيين الذين ينهبون فيافي الزمن ويتنقلون بخفة حتى يوصلون المريد الى مبتغاه، نعم ما أشبهها بهدهد سليمان الذي حمل كتاباً منه الى ملكة سبأ وبالجنّ الذين أتوا بعرشها الى قصره قبل أن تصل اليه))(١٢).

انه بالضبط ما يحدث لها هنا فسحر الذاكرة يحقق المعجزة بايقاف فعل الزمن الماحق واختراقه باجتلاب مشهد عزيز مرّ أو وجه أليف مضى أو مكان محبّب دُرس.

×××

(٤)

ومن الملامح التي تميّزت بها نصوصها أنّها تنطلق من نقطة معينة تنبثق عنها/ وتلتم عندها ثانيةً الخيوط أعني بذلك (بيت العائلة) وفي الذروة منه (الأب) ولكنه هنا مختلف عن الشخصية التقليدية السلطوية المعتادة للأب الشرقي، لقد ذكرت مراراً ما يتحلى به من الديمقراطية في التعامل والأريحيّة الأخلاقية والفكرية في طباعه وسلوكه مّما يلقي ضوءاً على تعلّقها الحميم به، ولذلك فحضوره دائم يتخلل أغلب استذكاراتها: ((فأتذكر نفسي عندما كنت صبية..... أستمع بلهفة الى نغمات الشعر وهي تأخذ عليّ كلّ سبيل وتترع روحي بجمالها..... وأسمع الشعر ملحّناً ببعض التلحين في انشاد والدي له حين يكون جالساً في البيت))(١٣)، وحين استظهرت وهي ما زالت صغيرة أمام نازك الملائكة قصيدة من ديوان نزار قباني (طفولة نهد) استغربت الأخيرة ذلك وسألتها عمّن سمح لها بقراءة القصيدة فباغتتها بالاجابة: عمي، ثم عقبت على الحادثة بالقول: ((وفي الحقيقة لا والدي ولا عمي – الذي يعيش معنا – يؤمنان بوجود محرمات فكرية ولا يخطر لهما على بال أن يمنعا أحداً منّا أن يقرأ ما يحلوله))(١٤).

وتكشف أختها عن جوانب أخرى أعمق من الصلة الروحية الوثيقة بين حياة وابيها تمتد الى موقفه بعد ولادتها اذ كانت البنت الثالثة بعد ابنتين مّما أثار امتعاض الآخرين الذين نعتوها بـ(ثالثة الأثافي) الاّ والدها الذي ((كان يؤمن بالمساواة التامة بين البنين والبنات ولم يدع مجالاً لسيطرة عقول مؤمنة بمفاهيم قروسطية من التدخّل في توجيه أبنائه وبناته وتربيتهم..... نشأت حياة وترعرعت في هذا الجو الأدبي وأظهرت موهبة خاصة عندما كانت تقارع والدي بحفظها دواوين شعر كاملة أثناء المساجلة الشعرية التي كانت تشترك بها العائلة))(١٥).

وتتطرف في ذكرياتها الى دور والدها في الجلسات الأدبية والسياسية التي كانت تعقد في دارهم: ((ان والدي محمد شرارة كان المضيّف والراعي والمشجع لتلك الندوة بشخصيته القوية اللبقة البشوش وروحه الاجتماعية ونقداته الأدبية الذكيّة وحديثه الممتع وحفاوته بالوافدين وحبّه للضيافة))(١٦).

وحين يستوقفها بيت من قصيدة السياب (ستار) فيه ايماءات لعلاقته العاطفية بلميعة عباس عمارة: (والباب توصده وراءك في الظلام يدا صديق)

لا تترك الفرصة تمرّ من غير تعليق: ((كانت هاتان اليدان يدي والدي الذي يرافقهما عادة كما يصحب غيرهم من الضيوف الى باب الدار ويودعهما ثم يغلق الباب))(١٧).

ولنصوصها قيمة تاريخية بما تنطوي عليه من ملاحظات دقيقة لأعلام اتصلت بهم ورصدت عاداتهم ومظاهر سلوكهم المختلفة وما خلفته طبيعة شخصياتهم من انطباعات تخلفها شخصياتهم لمن راقبهم عن كثب، تقول عن انشاد السياب لشعره وقد استمعت اليه مراراً: ((انّ أعصاب يديه المشدودة والتقلصات والانفعالات في عضلات وجهه وصوته توحي الينا كلها أنّه يعيش التوتر الفكريّ والعاطفيّ الذي تخلقه القصيدة وهي في سبيلها لترى النور وتظهر الى الوجود..... عندما يقرأ القصيدة يظهر كل ما هو جميل وقوي فيها ويذوب الصوت الضعيف من الأبيات في القوي منها ويحوّلها في الختام الى سمفونيّة منسجمة الأنغام لا وجود للأبيات النافرة أو الواهنة فيها))(١٨).

وسجلت ملاحظات دقيقة عن طقوس نازك أثناء الاستماع للموسيقى الكلاسيكية وهي: ((تنصت اليها مستغرقة فيها ذاهلة عن نفسها وعمّا حولها وقد امتزجت بها كلّ مشاعرها وأحاسيسها فهي أشبه بالعابد الذي يندمج في صلاته فتنسيه نفسه وكل ما يحيط به..... وكانت أحياناً تغلق عينيها لتستطيع حواسها أن تعبّ المزيد من تلك الألحان وتنغمس فيها، وما كان يجوز لأحد أن يتكلم أثناء ذلك))(١٩).

×××

ولئن شهد مشروعها في سنيها الاخيرة انعطافا نحو كتابة القصة القصيرة وبعض التجارب الروائية فانها لم تتوقف فعلياً عن سرود الذاكرة فقد استلهمت فيها ايضا مجريات حياتها الشخصية والعائلية (٢٠)، وكأنها وجدت في عوالم القصة بديلاً عن تلك الاسترجاعات المباشرة، وان لم تغادر فعليا منطقة الذاكرة لقد ظلت الذاكرة عندها التعويذة التي تواجه بها القهر والحصار الاقتصادي والفكريّ والسياسيّ والوحدة والحرمان التي أطبقت عليها جميعها، الى أن دُبر بليل مصرعها التراجيدي الغامض.

تكشف أختها عن جوانب أخرى أعمق من الصلة الروحية الوثيقة بين حياة وابيها تمتد الى موقفه بعد ولادتها اذ كانت البنت الثالثة بعد ابنتين مّما أثار امتعاض الآخرين الذين نعتوها بـ(ثالثة الأثافي) الاّ والدها الذي ((كان يؤمن بالمساواة التامة بين البنين والبنات ولم يدع مجالاً لسيطرة عقول مؤمنة بمفاهيم قروسطية من التدخّل في توجيه أبنائه وبناته وتربيتهم

الهوامش:

(١) تنظر: مقدمة روايتها (اذا الايام اغسقت)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت ٢٠٠٠: ص ٧٤ – ٧٧.

(٢) م. ن: ٢١.

(٣) تنظر: مجلة الأقلام: ٩، ١٩٨٩: ٩٩.

(٤) ينظر: م. ن: ١، ١٩٨٨: ٩٥.

(٥) مقدمة (اذا الايام اغسقت): ١٣، ١٥.

(٦) تنظر: مجلة الاقلام: ١، ١٩٨٨: ٩٢.

(٧) م. ن: العدد نفسه: ٩٢.

(٨) تنظر: مقدمة (اذا الايام اغسقت): ٤٧.

(٩) مجلة الاقلام: ٧، ١٩٨٧: ٦١.

(١٠) م. ن: ١، ١٩٨٩: ٩٨.

(١١) م. ن: ٧، ١٩٨٧: ٥٨.

(١٢) م. ن: ١، ١٩٨٨: ٩١.

(١٣) م. ن: ٧، ١٩٨٧: ٥٨.

(١٤) م. ن: العدد نفسه: ٦٠.

(١٥) مقدمة اذا الايام اغسقت: ١٠، ١٢.

(١٦) (١٧) مجلة الاقلام: ٩، ١٩٨٩: ٩٨،٩٩، ١٠١.

(١٧) مقدمة اذا الايام اغسقت: ٤١.

(١٨)(١٩) مجلة الاقلام: ٧، ١٩٨٩: ٥٨، ٥٩.

(٢٠) نشرت بعض القصص في حياتها وبعد رحيلها، وما زال قسم منها مخطوطاً، تنظر: مقدمة (اذا الايام اغسقت): ٦٠، ٦٢، ٧٥

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1783)
السنة السابعة
الخميس (29)
نيسان 2010

انتحار الاديبات . . هل هو رفض للموت بالموت؟

سعد الدين خضر

عندما تخبو جمرات الطموح ويتلاشي وهجها، وبعد أن تنطفيء شعلة الحياة، وتتحول جذوتها المتقدة في أعماق أعماق المبدع الي رماد... يكون آنئذ قد فقد الرغبة في استمراره بالوجود... فيحركهُ دافعٌ خفي حاد تتكثف فيه حالات البؤس والخيبة واللامبالاة.. عندئذ يصبح الموت هاجس الإنسان ومصيره، بل هدفه!!؟ وفرط الوعي، حالة نفسية وذهنية تُميّز الكثير من الأدباء والفنانين، وتطبع حياتهم وابداعهم... يصاحبها قلق الروح والحس المرهف، والتفرد، والاختلاف عن الآخرين، والتحسس المبكر للأشياء والأحداث والناس..!! حد الوجع الانفعالي والألم الخلاّق..!

القلق، التوتر، الانفعال، سمات سايكولوجية للمبدع الذي غالباً ما يُناوش العبقرية.. والبعض يرى في بعض المبدعين مجانين..! والجنون فرط العبقرية في واحدة من حالاته أو مستوياته..!! ويحدث ـ أحياناً ـ أن ينفصل المبدع عن محيطه ومجتمعه، وينعزل بذاته المتوهجة، ليمارس طقوس الخلق والابداع والتكوين.

وفي حالات قليلة، وربما نادرة يقف المبدع عند حافات الموت..!! يحاوره ويتأمله مصيراً محتوماً لكل كائن حي.. حتي الذبابة والعشبة... وفي لحظات وجودية سامية... أو قد تكون لحظات عبثية مرجعيتها الضجر، واللاجدوي، يجيء الموت انتحاراً تغيبياً اختيارياً للذات، للإنسان الذي بدأ يضيق بوجوده وواقعه.. فيفصح به عن شجاعة نادرة، أو عن جبن فريد، الموت انتحاراً برأي البعضُ ليس أكثر من خلاص وحيد محتوم ونهائي!!؟

وفي التاريخ الثقافي العالمي، ثمة عدد كبير من المبدعين غابوا انتحاراً، منهم مثلاً أرنست هيمنغواي وفرجينيا وولف، ورامبو، وفوكو، وجينيه، وميشيما.. وغير هؤلاء.

ومهما يكن من أمر، فإننا هنا لا نود الدخول في موضوعة فلسفة الانتحار..، وهل هو معصية أم بطولة..!!؟ وهل يحق للمرء أن يضع حداً لحياة لم يكن هو السبب فيها..!! أي أن الإنسان لم يخلق نفسه ولم يوجدْ ذاته.. فعلامَ إذن يقتلها..!!؟ واستطراداً مع ذلك نشير الي ان الفيلسوف الدكتور عبد الرحمن بدوي سبق وأن أصدر كتاباً في الكويت بعنوان (الموت والعبقرية) ولاشك ان فلاسفة وكتابا غيره قد تناولوا هذه الظاهرة المميّزة، ظاهرة انتحار الأدباء، والانتحار ذاته، وتفيض المكتبات بكتب كثيرة في هذا الموضوع.

وبالعودة الي عنوان هذه الموضوعة نقول أن تأريخ الأدب العربي الحديث يذكر العديد من الأديبات اللواتي قَضينَ انتحاراً.. وكانت حياتهن أمثولة لصراع مرير بين الذات والمجتمع... صراع بين قديم القيم والتقاليد التي تلتزمها الأسرة وبين جديد العصر من الأفكار والمذاهب والنظريات، صراع بين الموروث والتجديد، صراع بين كينونة المرأة وحريتها وطموحها نحو حياة جديدة وبين واقع المرأة ومكانتها في مجتمع ذكوري صارم يفرض عليها السكون والانكفاء.. والطاعة. ومن استقراء تاريخنا الثقافي القريب عثرنا علي جملة أسماء لأديبات وضعنَ حداً لحياتهن بمحض ارادتهن أو بفعل قوة ضغط المجتمع.. ونذكر منهن:ـ

الشاعرة المصرية (ناهد طه عبد البر) التي كانت تنشر قصائدها بتوقيع (ن. ط. ع) الحروف الأُوَلْ من اسمها الكامل.. ولم تستطع ان تتحمل آلامها النفسية ولا أن ترضخ لضغط التقاليد، ولم تقوَ علي كسرها، أو ربما لم ترغب بذلك احتراماً لقيم العائلة، فوضعت حداً لحياتها عام ١٩٥٠ وكانت ما تزال في الثلاثين من عمرها..!! وأوصت وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة بطبع ونشر ديوانها بعد موتها... ولم يفعل أحد ذلك!

الروائية المصرية عنايات الزيّات: انتحرت حوالي عام ١٩٦٨ بعد ان يئست من السماح لها بممارسة دورها كأديبة وكاتبة، وقد تم نشر روايتها (الحب والصمت) بعد موتها.

الشاعرة اللبنانية آمال جنبلاط: أحبت الشاعر سعيد عقل حُباً أفلاطونياً عميقاً، اختلطت فيه العاطفة بالابداع... دام حبها لهُ أكثر من عشر سنوات، كانت عوائق كثيرة تقف في طريق اقترانها به، منها فارق السن، واختلاف المعتقد، والأحوال السياسية القلقة التي سادت لبنان منذ عام ١٩٧٥ والحرب الأهلية.. الخ ولكن الزواج حصل، ووقع ذلك في شهر نيسان من ١٩٨٢، وبعد أقل من شهرين، أي في اواخر أيار ـ مايو ١٩٨٢، انتحرت آمال جنبلاط بإطلاق رصاصة واحدة علي رأسها من مسدس صغير كانت تحمله دائماً في حقيبتها، في حين لم يكن سعيد عقل في البيت، كان غائباً عن المنزل الذي شهد الكارثة!! انتحرت الشاعرة يوم أدركت أن سعيد عقل الشاعر، غير سعيد عقل الزوج والرجل.. وان حساب البيدر عندها لم ينطبق على حساب الحقل، فكانت النهاية..!؟

الشاعرة الجزائرية صفية كتو (١٩٤٤ ـ ١٩٨٩) كتبت صفية كتو نصوصاً شعرية ومسرحية بالفرنسية... ولها ديوان شعر بعنوان (صديقي القانون) صدر عام ١٩٧٩ ومجموعة قصصية بعنوان (الكوكب البنفسجي) صدرت عام ١٩٨٣، ومسرحية لم تستطع نشرها بعنوان (اسماء). كان انتحار صفية كتو محيّراً وغامضاً شأن معظم حالات الانتحار..!! ورغم نشاط هذه الشاعرة ومشاركاتها في الأحداث الثقافية والمؤتمرات الأدبية حتي في المشرق العربي، إلا أنها كانت علي ما يبدو، تعاني بصمت وكبرياء، حتي وضعت حداً لحياتها أواخر عام ١٩٨٩. وكان الأديب السوري المعروف أحمد دوغان على صلة بها وصداقة تولدت عبر مشاركاتها الثقافية، حتي أنه أدخلها ضمن كتابه (الخطاب النسوي في الأدب العربي الحديث).

الدكتورة حياة شرارة (١٩٣٥ ـ ١٩٩٧) الأكاديمية العراقية والكاتبة المبدعة وأستاذة الأدب الروسي في جامعة بغداد، مترجمة قديرة وقاصة وروائية، كتبت روايتها (إذا الأيام أغسقت) ونُشرت بعد وفاتها انتحاراً!! كتبت مقدمتها شقيقتها بلقيس شرارة.

كانت حياة شرارة قد حضرت في شبابها مؤتمر أنصار السلام في براغ عام ١٩٥٢. نشرت ذكرياتها على حلقات في مجلة (الأقلام) البغدادية بين عامي ١٩٨٧ ـ ١٩٨٩ تحت عنوان (تلك الأيام خلت). كتبت القصة والمقالة، كما كتبت الشعر... ولها ديوانان لم يُنشرا: (قصائد قديمة) و (شفق البحر). وفي الأدب الروسي كان لها ترجمات ومؤلفات كثيرة منها: (ديوان الشعر الروسي) و (تولستوي فناناً) كما شاركت بتأليف كتاب (تشيخوف بين القصة والمسرح)، وترجمت كذلك (مسرحيات بوشكين) و (عش النبلاء) و (رودين) لتورغينيف.

ولها رواية لم تُنشر (وميض برق بعيد).

انتحرت حياة شرارة عام آب ١٩٩٧ مع ابنتها مها، وتركت زينب وحيدة!!

ناءت هذه الأديبة المبدعة والأكاديمية الدؤوب بأثقال الواقع السياسي والضغوط النفسية فوضعت حداً لحياتها بعد أن فقدت زوجها الطبيب محمد صالح سميسم قبل ذلك بسنوات. قرأنا عنها في الصحف العراقية والعربية العديد من المقالات التي تناولت مأساتها ونهايتها المفجعة، وكتب السيد خالد حسين سلطان موثقاً حياتها ورحيلها المأساوي.

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1783)
السنة السابعة
الخميس (29)
نيسان 2010

حياة شرارة . . سنوات من الغياب

مـرّ عقد وثلاثـة ا عـوام كان أول يوم مـن شهر آب عـام ١٩٩٧، يوماً محرقاً بحرارتـه عندما غادرت حيـاة شرارة بغـداد إلى الأبد، كان يومـاً هزّ كياننا و قيمنـا، و أحرقتنـا شمـس الفـراق بحرارتهـا، و لم تخلـف إلا الشهقـة و اللوعـة في استيعاب هـول الخسارة. كانـت خسـارة انعكسـت ظلالها على محبيهـا و شملـت حتـى تلامذتهـا، فوضعـوا لافتة حـداد في مدخل كلية الآداب، معبرين بهـا عن عمق الفقدان الـذي سببه رحيلها عنهم. لم نكن نعلم برحيـل «حيـاة» عنـا ذلك اليـوم حتى المسـاء، عندمـا لفنـا الليـل بعتمته، و جمعنـا زوجـي رفعـة الجادرجي في غرفـة تطل على نهـر التايمز في لندن، و قـال لنا موجها كلامه لي و لشقيقتي مريم و زوجها جيم:

لقد جمعتكم هذا المساء لأخبركم بخبر مـؤلم جداً بالنسبة لي و لكم، و توقف لحظة عـن الكلام، سـاد صمت غريب، آذان صاغيـة، عيون محدقـة، ما الذي سيقولـه لنا! بلع رفعـة لعابه، و نحن بالانتظـار!! احتبسـت الكلمـات بـين شفتيـه، شعـرت بمعاناتـه، أحسست أنـه يحمل عبئـاً ثقيلاً، لا يـدري كيف يتخلـص منه!! طـال الصمت، و نحن مازلنـا آذاناً صامتـةً و عيوناً محدقة، ثم أردف قائـلاً بجرأة: توفيت «حياة» هذا اليوم، ساد الصمت ثانية و هيمن الوجـوم علينـا، انفلتـت كلمتـان من بين شفتيّ: سكتـة قلبية؟ لم يرد عليّ، توقف قليلا متنهداً بعمق، ثم استرسل في إكمـال جملته، لقد أنهـت حياتها!! كما أنهت ابنتها مها حياتها أيضاً!!

و لمـاذا و كأن قنبلـة حارقـة سقطـت بيننـا، و انقلبـت إلى صـراخ مـن الأسئلـة الحائرة، كيف و لمَ انتحرتا؟ صمـت رفعة عن الـكلام ثانَية، شعرت بالاختنـاق، و انهالـت الدمـوع مـن عيني، و أنا أصـرخ لماذا؟ بين الدموع المتدفقـة، أجـاب رفعة: لا نـدري!! ثم رفع سماعة التلفـون و فاجأني عندما قال لأخي إبراهيم: هـذه بلقيس تكلم معها، تملكتني الحـيرة، لا أدري كيف أفاتحه بهذا الخبر المفجع! انه بعيد عنا في بيروت. سيطرتُ على أعصابي، و سمعـت صوتـي يـردد: لا ادري كيف أخبرك يا إبراهيم بالفاجعة التي حلت بنـا... لقد فقدنا «حيـاة»!! ساد حاجز من الصمـت الرهيب بيننـا، لم ينبس بكلمـة، فأضفت و كأن صمته شجعني على الاستمرار، كما فقدنا ابنتها مها!! لم اسمـع إلا صـدى كلماتـه، يـردد: نكبـة، نكبة، نكبـة! و انفجـرت باكية بأعلـى صوتـي، نعـم إنهـا نكبة حلت بعائلتنا، سحبـت أختي مريم بسرعة خاطفـة التلفون من يـدي، واستمرت في الـكلام و أنـا أصـرخ و أتساءل و الدمـوع تنسـاب من عينـي لمَ مها؟ ما زالـت مها، زهرة في عنفـوانَ شبابها، إنهـا روح الربيـع المتفتـح، و غصـن غضـ أجتث قبـل أوانـه!! لمَ احترقت و تلاشـت بهذه السرعة؟! لمَـا انطفأت جـذوة الحيـاة فجـأة؟! أهـذا مصـير شابة في مقتبل العمر؟

عـوت ريـاح الجـزع في داخلـي، و تمطت الأفكار السـود بفحيحها تلتهم ما تبقـى من مساحاتـه، أسائل نفسي في ذلك الليل الطويـل و أرد عليها: ما الذي حـدث «لحياة» لتقـدم على إنهاء حياتهـا؟ مـا الذي حـدث لتلـك الروح المتطلعـة إلى المستقبـل و لمَ تمزقـت أحلامها و تلاشت إلى الأبد!

مـرّ طيف مـن صور حملتهـا معي في غربتي، حديقـة دارها التي كنا نشرب الشاي بها تحت شجر التفاح و عريش العنـب، تطوقنـا رائحـة الأزهـار، و زقزقـة العصافـير عندمـا تـأوي في المسـاء إلى حديقـة الدار، الـدار التي خلـت من أهلها، و خيـم الصمت عليها في ذلـك اليـوم، و طأطـأت الأشجـار رؤوسهـا و انحنـت الأوراد مودعـة نعشيهما.

مـرّ عقـد علـى تلـك الليلة، التـي ظلت الأسئلـة تدور في ذهنـي حتى انبلاج الفجـر، أسائـل نفسـي لمـاذا؟ و لمَ؟ و في الصبـاح مسكـت القلـم محاوَلـة تخفيـف الجرح الـذي أحدثتـه مأساة وفاتها، و كتبت تعزية عنها، كانت هي المـرة الأولى التي أكتب بها، فقد كانت السبب في أن تتفجر عواطفي الملتهبة و لم أجد في تخفيفها إلا بالكتابة.

مـرّ عقـد انهـارت خلالـه استبداديـة الحاكـم المطلـق في العـراق، الـذي كان سبباً في جعـل حياتهـا و حيـاة أهـل العـراق مسلسلاً مـن الخوف و الرعـب، الذي صورت بعض فصوله في روايتهـا (إذا الأيـام أغسقـت). و بثـت ما في أعماقها من وجع و جزع و خوف على صفحات الـورق الأبيض، فبرزت فصولاً من الرعب الذي اجتاح العراق.

جلسنا بعد سنوات في الغرفة نفسها، الغرفة المطلة على نهر التايمز، نشاهد من خـلال التلفاز، الجماهير في بغداد وهي تضرب رأس تمثال الطاغية الذي شوه نفسية شعـب بكامله، بالترهيب و الحرمـان و العنـف و القتل. لم نكن نتصـور أننـا سنشاهـد في يـوم مـا سقوط ذلـك الطاغيـة، و نهاية حكمه، تمنيت أن تكـون «حياة» بيننا في تلك اللحظة لتفرح كما فرحنا.

و لكـن مـا أقصر تلـك الفرحـة، التي لم تطـل إلا بضع ساعـات، حتى بدأت بغداد تنـزف أمام أعيننـا، و تستباح كمـا استباحهـا هولاكـو منـذ سبعـة قـرون و نصـف!! فكسـرت و نهبـت آثـار متاحفها و دمر تراثها، و اندلعت ألسنـة النـار في مكتباتهـا و أحرقـت وثائـق الدوائر و المؤسسـات، و كأن التاريخ يعيد نفسه عندما دمرت مكتبة دار الحكمة في بغداد منذ قرون!!

لكـن رغـم استباحـة بغـداد، ظـل الناس مستبشريـن، فقـد تخلصـوا مـن الكابوس الـذي كان جاثمـاً على صدورهم، خانقـاً آمالهم و أحلامهم. و انطلقـت في العـراق عشـرات الصحـف و الأحـزاب، و انعقـدت المؤتمـرات، بأنواعها و أشكالها، و ظهرت شخصيـات و وجوه جديدة علـى المسـرح، بعـد انهيـار عرش صـدام، و لكـن ظهـرت أيضـاً عروش جديـدة بأسمـاء جديـدة، و انقلبـت بعضهـا إلى إثـارة النعـرة الطائفيـة و العرقيـة و الإثنيـة و العشائريـة، فاستبدلـت الموجـة الشمولية بموجة أصوليـة، مـن خـلال الفضائيـات و الإذاعـات و الصحـف. لقـد حسبنـا أن الطائفيـة و العرقيـة و العشائريـة قـد انمحـت في عراقنـا الـذي نشأنـا و ترعرعنـا فيـه! فلـن تعـرف «حياة» عراق اليـوم، فهو عـراق بعيد، غريب عـن أفكارها و تطلعاتها التي ناضلت مـن أجلهـا طـوال حياتهـا. إذ أن العقليـة التـي تكمن خلفها هـي عقلية صدام حسين المتأصلـة في استئصال الآخر. فالتسويـات و التنازل يعنيان الخسـارة. و أصبـح الديـن سلعـة يبـاع في المـزاد، يزايـد عليـه رجـال مليشيـات ملثمة الوجـوه، انبعثت و تكاثـرت و استشـرت كمـا يستشـري السرطان في الجسـم العليل. يقتلون باسم الديـن على الهوية كما كان يقتل صدام حسين باسـم البعث و القومية العربيـة. أصبـح عـراق اليـوم نقطة جـذب لجميـع أفـكار التطـرف التـي تتواجـد بمسميات جديـدة، مدعمة و ممولة من قبل بعض الدول العربية و الإسلاميـة. و أصبح القتل و الذبح و الخطف على الهويـة شيئا طبيعيا في العهد الجديد.!!

مـرّ عقـد و العـراق يمـر في مآسـ متواصلـة، فالعلـم يحـارب بقتـل أساتذتـه وأطبائـه و طلبتـه وعلمائه و خبرائـه. و استشـرت هجـرة العقول مـن العـراق و أصبحت آفة لا يمكن التغلـب عليها، تلتهـم العقول و الضمـير. مـرّ عقـد غلب عليـه الحزن فـأذاب الفرح، عقـد لفه دخـان الرعب بجناحيـه، و الناس حـيرى يتطلعون إلى السماء علهـا تشرق شمس الأمان في مدينتهم بغداد.

لا أدري كيـف أختصـر عقداً كامـلاً و «حيـاة» تحـت حفنـة من الـتراب في عتمـة القـبر الضاريـة. كنـت أتمنـى زيـارة قبرهـا بعـد سقـوط الحاكـم الـذي كان سبباً في نهايتهـا المحزنة، زيـارة مدينـة بغـداد التـي أحبتها و لم تفارقهـا!! مدينـة بـترت أوصالهـا و قطعـت شرايينهـا، و هُجّـر أهلهـا، و أغرقـت في شـلال من الـدم!! داكن، قاتم، هو الواقـع الذي يعيشه الناس، و لا أدري متـى يعـود العـراق إلى شاطئ الأمان!! فأهـل العراق لا زالوا في الانتظار...

عوت رياح الجزع في داخلي، و تمطت الأفكار السوداء بفحيحها تلتهم ما تبقى من مساحاته، أسائل نفسي في ذلك الليل الطويل و أرد عليها: ما الذي حدث «لحياة» لتقدم على إنهاء حياتها؟ ما الذي حدث لتلك الروح المتطلعة إلى المستقبل و لمَ تمزقت أحلامها و تلاشت إلى الأبد!!

بلقيس شرارة
عن موقع إيلاف
الالكتروني

مراقبون
من زمن التوهج
العدد (1783)
السنة السابعة
الخميس (29)
نيسان 2010

حياة شرارة مع عائلتها

إذا الأيام أغسقت وإذا الأحلام تبعثرت

تركي الحمد

"لقد اصبحت بغداد فريسة جريحة بأهلها، جثث متحركة، لا إرادة لها، فبغداد تنزف ولم يبق منها الا جروح متقرحة. ولكن برغم الجو المشحون بالرعب والجوع ، ما زالت عيون الناس ونظراتهم تخفي تحتها معارضة صامتة، وتحت ذلك القنوط واليأس يكمن بركان خامد"..(من مقدمة بلقيس شرارة لرواية شقيقتها حياة شرارة "اذا الايام اغسقت" الذي اخترناه عنوانا لهذه المقالة – المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠٢ ص٧٣) مهما تحدثنا عن العراق، وما حدث في العراق ومن العراق وعلى العراق ، فإنه لايعكس الصورة الحقيقية التي آلت اليها حياة الانسان في ارض السواد وما بين النهرين نتحدث في تحليلاتنا عن اشياء كثيرة وحول مفاهيم كبيرة ، وخطر هذا على ذاك، وذاك على هذا، وسيناريوهات ما بعد هذا وذاك، وننسى في خضم ذلك كله الانسان نفسه وكيف فعلت به ايام نحسبها نحن بدورة الفلك، ويحسبها العراقي بحسابات لا علاقة لها بشمس او قمر، أنهيت قراءة "اذا الايام اغسقت" ومن قبلها "الغلامة" لعالية ممدوح والمسرات والاوجاع، لفؤاد التكرلي، وتل اللحم لنجم والي، فأدركت الى أي درك سفلي وصل الانسان في العراق، واي مآل آلت إليه الشخصية العراقية، تلك الشخصية المتمردة والفخورة بذاتها، اقارن بين البؤس الذي تزخر به هذه الروايات –الشهادات ، وبين ذلك الامل والحلم والكبرياء التي تحدث عنها فاضل العزاوي في "الروح الحية:جيل الستينيات في العراق" أو نجيب المانع في "ذكريات عمر أكلته الحروف" وغيرهما، فأكاد اشك ان المتحدث عنه عراق واحد، أو هو ذات العراق.

في غابر ايام غسقت، كان بدر شاكر السياب يصرخ في وجه الطغاة في بغداد قائلا: "الموت في الشوارع والعقم في المزارع، وكل ما نحبه يموت، الماء قيدوه في البيوت، وألهث الجداول الجفاف...أهذه مدينتي؟ جريحة القباب فيها يهوذا احمر الثياب يسلط الكلاب على مهود اخوتي الصغار.... والبيوت تأكل من لحومهم، وفي القرى تموت عشتار عطشى، ليس في جبينها زهر،وفي يديها سلة ثمارها حجر،ترجم كل زوجة به، وللنخيل في شطها عويل" (من قصيدة السندباد)، رحم الله السياب، فلو كان حياً اليوم، لمات الف ميتة وميتة قبل ان يموت فتلك الايام الغاسقة التي كان يصرخ في وجهها متمرداً وثائراً، هي افضل الف مرة من ايام اليوم،بل هل تجوز المقارنة؟ والبؤس هنا ليس بؤس البحث عن لقمة تسد الرمق،وان يصبح ذلك هاجس الجميع في بلاد لديها من الانهار اثنان، ومن النفط منابع في الشمال والجنوب ومن الارض اسودها، ومن السماء أمطرها، الكل في العراق، الا فئة قليلة غلبت فئة كثيرة، من استاذ الجامعة حتى اولئك الذين يكنسون شوارع الرشيد وابي نواس والمتنبي يبحثون عن لقمة سكت صراخ المعدة ، منذ السحر وحتى الغسق، وكل ذلك مهما كان قاسيا، ليس فيه شيء من البؤس، البؤس في العراق اصبح بؤس الروح التي اصبحت دون روح، والحياة التي اصبحت دون حياة، الخوف يلف كل شيء بردائه، وملاك الموت يراقب الانفاس حتى يتأكد من ان لا نفس الا نفس الزعيم، ولا خفقة قلب الا وهي تهتف باسم الزعيم: "تعاظم الخوف في دواخلهم..لم يكن خوفهم ذلك الخوف الغريزي الذي يشعر به الحيوان في الغابة.. وانما خوف يجمد الروح ويشل الاوصال ويميت الكلمات على الشفاه، ويبعث الفزع في العيون ويظل المرء مسمرا في مكانه ، في تلك الزاوية الضيقة التي حصر فيها ولايتحرك منها الا بارادة غيره" "ان القلق والترقب لايضعفان الاعصاب وحدها وانما يبريان الروح وينهكانها ويشوشان الذهن.." يقول الدكتور نعمان ، بطل "اذا الايام اغسقت".

انه الوضع الذي تصبح فيه ذات الحياة مشكلة "فالانسان يتواجه مع مشاكله في الحياة، عادة بما يملك من صبر وقابلية على المناورة"؟ وذلك كما يقول توفيق بطل "المسرات والاوجاع" انه الخوف الذي ينتفي عنده معنى أي شيء وكل شيء ، فيصبح مجرد الحفاظ على الحياة بؤسها ، هاجس الهواجس وغاية كل غاية: "لقد استبدلت الكلام بصوت اعتيادي بالوشوشة،لأنني مسكون بالخوف، لا في عقلي الواعي وحده وانما في كل حواسي وأوصالي :يداي ترتجفان اذا سمعت صوتي العالي وركبتاي تخوران وعيناي

في غابر ايام غسقت، كان بدر شاكر السياب يصرخ في وجه الطغاة في بغداد قائلا: "الموت في الشوارع والعقم في المزارع، وكل ما نحبه يموت، الماء قيدوه في البيوت، وألهث الجداول الجفاف...أهذه مدينتي؟ جريحة القباب فيها يهوذا احمر الثياب يسلط الكلاب على مهود اخوتي الصغار

العدد (1783)
السنة السابعة
الخميس (29)
نيسان 2010

حياة شراره .. سيرة الالم

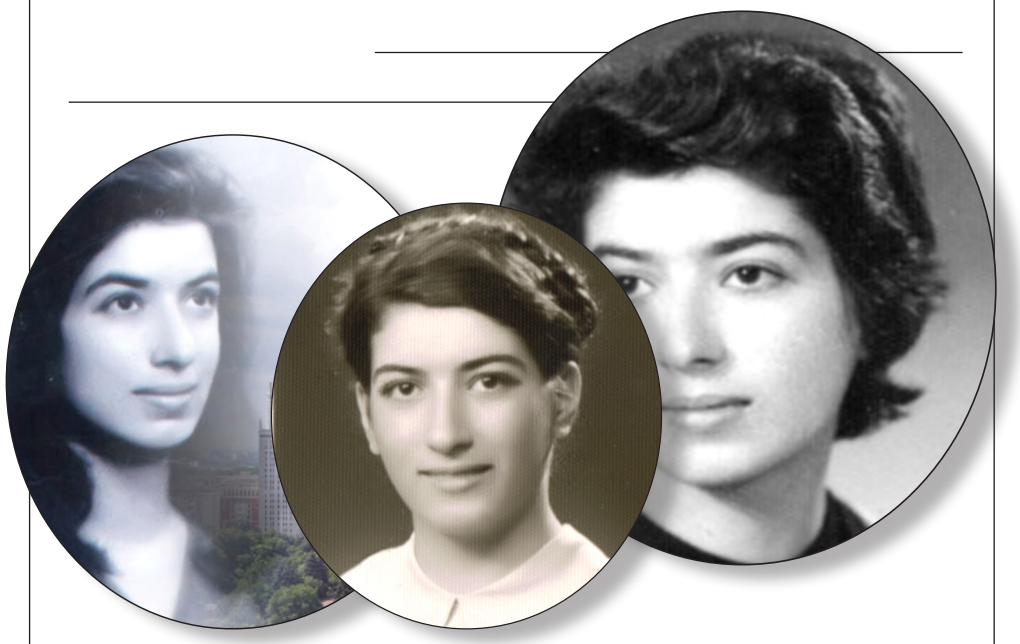

تزوغان وأرنبة انفي تهتز وانفاسي تلهث وريقي يجف والدماء تجمد في عروقي، واصبح ظلا لا نور فيه لشكل آدمي ظاهريا، بناء ورقيا واهيا ومهتزا" (اذا الايام اغسقت ص٨٤) ربما يكون كنعان مكية قد قال الكثير في "جهورية الخوف" وربما قال غيره اكثر عما يحدث في بلاد السياب والجواهري والرصافي والوردي، وارض المن والسلوى، ارض الرشيد والمأمون ومدارس الكوفة والبصرة واحلام شهرزياد في مدينة السلام، ولكن كل ذلك لا يصف الحقيقة الصافية كما تصفها رواية شهادة، تعكس هواجس النفس، والخوف عندما ينخر العظام، وبؤس الذات عندما تصبح عدواً لذاتها ومتلصصاً على نفسها وجاسوساً على تلك الخلايا القابعة في الاعماق.

يتحدثون عن الحصار وما فعل الحصار كثيرا، ويتحدثون عن تلك الاموال المهدرة، والخيرات المبعثرة التي اوصلت العراقي الى ما هو عليه من بؤس مادي وتشتت في اصقاع الارض، وهو الذي لايرضى في العادة بارض الرشيد بديلا: "فالعراقي بطبيعته لايحب الهجرة، ويفضل الاقامة في بلده مهما قست الظروف عليه، ولكن ظاهرة الهجرة وترك البلد وايجاد لقمة عيش في بلد غريب بعيد عن وطنه ، اصبحت القاعدة واصبحت امنية كل عراقي ترك ما يسمى بالوطن" (من مقدمة بلقيس شرارة). ولكن من قال ان الجوع هو البؤس؟ البؤس هو انجراح الروح وتمزق الذات حين تضيع الحرية ويصبح العدل كلمة لا معنى لها، وتتحول الكرامة شعارا يرفرف في الاعالي، ولكنها تداس بالاقدام على المزابل الموحشة ، حيث ترتع الكلاب والفئران الجوع مع الكرامة والحرية والعدل، عدل بذاته، ولكن ان يكون الجوع ولا شيء اخر، هنا تكمن المأساة: "كان الناس يعانون ويتألمون ويستجيرون بالله تعالى لينصرهم وهم يرون اطواقا فوف اطواق تحيط بهم، الخوف المرض الجوع العوز، ولكن لاشيء يتغير وتظل الافواه مكممة والقلوب معذبة والنظرات مستاءة والاقدام تسير والايدي تواصل العمل (اغسقت ص٩٢)، ما يحدث في العراق ليس افتقاد اللقمة نتيجة حصار او حروب، ولكنه ضياع الانسان ذاته، فالحيوان وحده هو الذي يقتله الجوع، اما الانسان فلا يقتله الا ضياع الكرامة وافتقاد الذات في اوضاع لايسمح للذات بأن توجد فيها.. قد يموت الانسان جائعا ولكنه حين يسلب منه اعز ما يملك تلك هي انسانيته ذاتها، وما الانسان الا شيء من كرامة وشيء من كبرياء وشيء من حرية فاذا ضاع شيء من ذلك ضاعت تلك الجذوة التي جعلت من الانسان انسانا.

ولاتحسن العراق ظاهرة طارئة في اوضاع مثل اوضاعنا، او نتيجة غير خاضعة للمنطق الذي يسير امورنا في هذه البقعة التائهة من العالم ولكنه النهاية القصوى لما يمكن ان يؤدي اليه ذلك المنطق وتلك الحالة. فكل مصرمن امصارنا وكل صقع من اصقاعنا مرشح لان يكون عراقا اخر، طالما بقي المنطق ذاته مسيرا للامور، وطالما بقيت الحال هي الحال منذ ان قال فرعون ذو الاوتاد، "انا ربكم الاعلى" "ما علمت لكم من اله غيري".. وحتى رأى الناس صورة صدام حسين في وجه البدر المنير، كما سبق ان رأوا صورة الزعيم الاوحد عبد الكريم قاسم في ذات البدر ذات يوم مضئ، مرورا بصيحة عبد الله بن محمد بن علي قائلا" انا السفاح المدير" فطالما كان الانسان لاقيمة له، فكل شيء في الامكان جائز، لم يكن فرعون هو المسؤول وحده عن ربوبيته وإلوهيته، ولم يكن السفاح مسؤولا وحده عن دمويته، وليس صدام هو المسؤول الاوحد عما آلي اليه حال العراق، كلنا مسؤولون وبدرجة تكاد تكون مساوية لدرجة مسؤولياتهم ، فكما يقول عيسى في "اذا الايام اغسقت" "فالسكوت هو القبول بالعبودية" ومن رضي بالعبودية مصيرا فلا يلومن الا نفسه، مسؤولون حين انسقنا مخدرين وراء شعارات لاتسمن ولاتغني من جوع ، مسؤولون حين صمتنا عن كل جريمة ارتكبت وكل امتهان لكرامة الانسان، باسم الامة وكبرياء الامة، وكانت الامة في النهاية من الخاسرين، مسؤولون حين اعتقدنا جواز التضحية بالفرد على مذبح الجماعة، فخسرنا الفرد والجماعة اجمعين، مسؤولون حين صدقناء بغباء ان هناك الهة تمشي على الارض، فصفقنا لهذا، وهتفنا لذاك.

"لقد تجاوزت السبعين فماذا انتظر كم سنة سأعيس حتى لو عمرت وماذا يتغير ؟ كل شيء يمضي نحو الاسوأ، فنحن نقف فوق ارض مائلة تنحدر بنا دائما الى الاسفل" (اذا الايام اغسقت" ص٢٢٤ قمة الاحباط واليأس في كلمات الدكتور اكرم، وهو الذي طرد من الجامعة لأسباب سرية لايعلمها الا من لديه علم بخفايا الصدور في العراق، تقارن ما يقوله الدكتور اكرم هنا، بكل تلك الاحلام التي كانت تملأ الصدور، فتشعر فعلا بمدى البؤس الذي وصل اليه الانسان في العراق، يأس وصل الى درجة مجرد الانتظار.. انتظار شيء خارق للعادة يعيد شيئا من الحياة لمن فقدوا الحياة في القبور، فما عاد بالمستطاع فعل شيء ، والخوف، بل هو الرعب يجثم على الصدور ويكتم الانفاس: " وها أنا ذا اتبعهم براس مطأطئ وانحشر بينهم واصبح جزءاً من هذه الكتلة البشرية المتراصة التي تحمل صلبانها وتسير فوق ارض ترابها من رماد، رماد الحرائق المنظورة وغير المنظورة التي عاشوها وما زالوا يواصلون السير فوقها وعيونهم الى الارض، واحيانا يرفعونها الى السماء فيبدو فيها التضرع والابتهال والدعاء الصامت" (اذا الايام اغسقت ص ٣١٧) وهكذا تنهي حياة شرارة روايتها، او لنقل شهادتها ، على عراق لم يعد العراق: يأس وأمل في انتظار ما لايجيء ..لعله يجيء.

جريدة الرياض ٢٠٠٧

برزت د.حياة شرارة عندما كانت طالبة دراسات عليا بجامعة موسكو في مطلع الستينيات بين جميع الطلاب العراقيين الكثيرين ايامذاك بكونها هادئة الطبع للغاية وبجدها وبمثابرتها سواء في الدراسة ام في النشاط الاجتماعي. وهذه الصفات اكسبتها احترام الجميع من روس وعراقيين وغيرهم من ابناء البلدان العربية.

وعرفت القاعة رقم واحد في مكتبة لينين هذه الطالبة بكونها تأتي في وقت محدد في الصباح وتغادره في ساعة معينة بعد الظهر. وكانت دائما تجلس وراء طاولة مجاورة لتلك التي كان يشغلها فياتشيسلاف مولوتوف وزير الخارجية السوفيتي السابق بعد احالته الى التقاعد وامامه اكوام مجلدات الصحف والكتب. اذ كان يكتب اما مذكرات او تقارير تكلفه بها اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي. وقالت حياة مرة لزملائها وعلى ثغرها ابتسامة رقيقة "انني اعمل سوية مع مولوتوف".

وقد اختارت حياة موضوعا لأطروحتها لنيل الدكتوراة في الادب في موضوع "تولستوي انسانا" كما كانت تهتم بموضوع شخصية المرأة في اعمال الكاتب الروسي ايفان تورجينيف. وقد واصلت دراسة اعمال هذا الكاتب وترجمة بعضها الى العربية لاحقا لدى عودتها الى العراق حيث عملت استاذة في قسم اللغة الروسية في جامعة بغداد. وفي العام الاخير من وجودها في موسكو عملت في القسم العربي بوكالة انباء تاس السوفيتية.

ولدت حياة شرارة في عام ١٩٣٥ بمدينة النجف وأكملت دراستها الثانوية في بغداد ثم سافرت بسبب الظروف السياسية في العراق في العقد الاخير من الخمسينيات الى سورية ومصر حيث التحقت بقسم اللغة الانجليزية بجامعة القاهرة. وعادت الى العراق بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، وفي عام ١٩٦١ جاءت الى موسكو.

نشأت حياة في مدينة النجف المقدسة في بيت والدها محمد شرارة الاديب والشاعر الذي كان يرتاده الشعراء والكتاب والمثقفون وتدور فيه النقاشات حول قضايا الادب. وكتبت شقيقتها الكاتبة بلقيس شرارة حول هذه المدينة تقول : " بالرغم من الجو الديني المرادف لمدينة النجف ، هنالك جو آخر ازدهرت فيه نهضة ثقافية واسعة، اذ صدرت عدة صحف ومجلات كان لها دور مهم في الدعوة للأصلاح الاجتماعي ، ك "الهاتف" و" الحضارة" و"الغري" و" البيان" ، وبرز فيها كتاب وشعراء اغنوا تراث العراق الادبي مثل محمد الجواهري وعلي الشرقي وجعفر الخليلي وسعد صالح ، ومن الجالية اللبنانية ظهر حسين مروة ومحمد شرارة". وكان لابد ان يؤثر هذا الجو في حياة منذ صباها فقد احبت الشعر وحفظته عن ظهر قلب وكانت تشارك في المساجلات في حفظ الشعر بين افراد العائلة.

وذكرت بلقيس ان العائلة انتقلت في منتصف الاربعينيات الى بغداد حيث اصبح لأبيها محمد شرارة صالونه الادبي الذي كان يرتاده اسبوعيا بدر شاكر السياب ولميعة عمارة ومحمد مهدي الجواهري ونازك الملائكة واكرم الوتري وبلند الحيدري وغيرهم من الشعراء والادباء العراقيين. وقد حفظت حياة في سن ١٢ عاما اشعار بدر ولميعة ونازك.

لكن الاحداث السياسية العاصفة في العراق في اواخر الاربعينيات من القرن الماضي جعلت حياة تشاهد مأسي الشعب العراقي واعتقال والدها وفقدانه لعمله.وبعد اطلاق سراحه ادين من قبل المحكمة العسكرية وحكم عليه بالسجن عدة اشهر بسبب انتمائه لحركة " انصار السلام". ومن ثم غادر محمد شرارة العراق الى لبنان في عام ١٩٥٤ للأقامة الدائمة هناك. اما حياة التي انتظمت آنذاك في صفوف الحركة اليسارية ، فسافرت هربا من ملاحقة السلطات الى سورية ومنها الى مصر حيث التحقت بجامعة القاهرة للدراسة في قسم اللغة الانجليزية.

وبعد عودتها الى العراق عملت في جامعة بغداد فترة من الزمن حتى بدأت السلطات ملاحقتها بالرغم من محاولتها عدم الاعراب عن مواقفها من سياسة الحكومات آنذاك. وانصرفت الى التأليف والترجمة. فنشرت مقالات مثل "تأملات في الشعر الروسي" (١٩٨١) و" غريب في المدينة" ومسرحية " المفتش العام " لجوجول و"يسينين في الربوع العربية" (١٩٨٩) و"ديوان الشعر الروسي" (١٩٨٣) و"مذكرات صياد" (١٩٨٤) و" رودين " و"عش النبلاء" لأيفان تورجينيف و" مسرحيات بوشكين "(١٩٨٦) و"تولستوي فنانا". وتعتبر دراستها "صفحات من سيرة نازك الملائكة" الشاعرة المجددة التي عرفتها منذ الطفولة من البحوث المميزة عن نشأة حركة الشعر الحر في العراق. كما نشرت بعد وفاتها رواية " اذا الايام اغسقت" عن مصاعب الحياة الجامعية في بغداد. ولديها رواية لم تنشر بعنوان" وميض برق بعيد" ومجموعات قصصية. ونشرت في الصحف العراقية والعربية مقالات كثيرة حول الادب والشعر.

وكانت فترة الحرب مع ايران ثم حرب الخليج من الفترات الصعبة جدا في حياة اسرتها بسبب تدهور الوضع الامني والمعيشي والعقوبات المفروضة على العراق. ومنعت حياة من السفر الى الخارج حين فقدت العمل في الجامعة ، وذلك بسبب ارتفاع رسم الخروج وقانون السفر الجديد الذي نص على بند" الحرم" حيث يمنع سفر المرأة بدون زوجها. وكان زوجها محمد صالح سميسم قد توفي بعد اعتقاله في عام ١٩٨٢ . وكتبت حياة رسالة الى رئيس الجمهورية تطلب فيها السفر الى الخارج مع ابنتيها بدون محرم لكن طلبها بقي بدون جواب. واصاب حياة الاحباط الشديد بعد ان اغلقت امامها ابواب العمل والنشر والسفر ..وفي الاول من آب ١٩٩٧ وقع انفجار انبوبة الغاز في بيتها الذي ادى الى مصرعها مع ابنتها الكبرى مها، بينما اصيبت ابنتها الصغرى زينب. وفيما بعد قيل ان الحادث كان مدبرا من جهة ما. وهكذا انتهى درب الالام الذي مضت فيه هذه الاديبة العراقية المبدعة بشكل مأساوي.

عن موقع نون - مبدعات عراقيات

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1783)
السنة السابعة
الخميس (29)
نيسان 2010

حياة شرارة سيرة حافلة بالعطاء الابداعي والانساني . .

توقف قلب الاكاديمية والمترجمة والباحثةٍ والشاعرة حياة شرارة، في اب عام ١٩٩٧ ، ومهما قيل في اسباب رحيلها ومفارقتها الحياة، تظل الراحلة كيانا انسانيا مميزا سواء في عطاءاتها الابداعية المتعددة في اكثر من حقل وميدان، او في سلوكها الحياتي المعيش ودماثة اخلاقها، فقد تنوع انتاجها الثر بين الكتابة السردية، رواية وقصة وبحثا ومقالة وترجمة، وتحقيقا فضلا عن كتابتها لديوانين شعريين ويعود كل ذلك، الى اتنوع ادواتها الثقافية والمعرفية، من كونها نشأت في بيئة ثقافية وفكرية وادبية أسست الى حد كبير لقاعدتها المعرفية، فقد كان والدها محمد شرارة شاعرا وله صالون ثقافي وادبي يرتاده جمهرة من الادباء والمفكرين والشعراء العموديين او التفعيليين من امثال: الجواهري ورائدي الحداثة الشعرية ، السياب والبياتي، ينضاف الى ذلك سفرها الى روسيا الذي اغنى كثيرا من قدرتها الثقافية والابداعية من خلال قراءاتها الواعية والذكية اللماحة في فنون السرد القصصي والروائي، ممثلة بعمالقة الادب الروسي الكلاسيكي سنينئذ، مثل دوستوفيسكي، وتيشخوف، وتولستوي وغوركي وغيرهم الكثير.

جمال كريم

ومن اثارها البارزة والمهمة، انها حققت كتابين لوالدها هما"" المتنبي بين البطولة والاغتراب" و"نظرات في تراثنا القومي"، ومن إصداراتها في الترجمة، كتاب فن الترجمة وكتاب تشيخوف بين القصة والمسرحية، ولها في الشعر ديوانا مخطوطان هما: قصائد قديمة، وشفق الفجر، ولها رواية بعنوان، اذا الايام اغسقت، صدرت بعد وفاتها في بيروت ، غير ان كتابها الاهم هو صفحات من حياة نازك الملائكة، الصادر عن دار رياض الريس في لندن عام ١٩٩٤، وهو كتاب سيري عن حياة الرائدة نازك الملائكة وقد بذلت الكاتبة جهدا كبيرا في تقصي ادق التفاصيل المتعلقة بنشأة الملائكة من الجانب الاجتماعي والثقافي، وذلك من خلال المصادر الموثقة واللقاءات الشخصية مع ذوي ومقربي واصدقاء الشاعرة، فهي بهذا المنجز لم تعتمد فقط على ما وقع بين يديها من مدونات او وثائق نقلتها بما عرف عنها من اناة علمية وبحثية فضلا عن كتاب (نازم لامحات) من سيرة حياتي وثقافتي، تقول الراحلة شرارة في مقدمة كتابها: منذ ان سجلت ذكرياتي عن نازك الملائكة في مقال بعنوان تلك ايام خلت "ظلت تخامر ذهني فكرة الكتابة عن سيرة حياتها بشكل تفصيلي بحيث استطيع ان اعطي صورة شخصية حية لها تنبض بالحركة، غير ان المشاغل الادبية اليومية وغير الادبية جرفتني في تيارها ولم تفسح لي المجال لعمل فكري في هذه الدراسة واشرع في البحث عن السبيل المؤدية الى الحصول على مئات التفاصيل الصغيرة اليومية التي لابد منها لكل من يريد ان يكتب عن سيرة حياة شاعر او كاتب.

وعن طبيعة هذا العمل الذي انجزته تضيف شرارة: كنت ادرك انه ينطوي على شيء من المغامرة واكتشاف ما يسرني وما يسوءني ما يشحذ عزيمتي او ما يثبطها، غير انني لم اكن اميل الى التخلي عن هذه الفكرة، كنت اعتقد انني استطيع ان انجح في هذا العمل، لأنني كنت مطلعة منذ صغري على حياة نازك الملائكة وعائلتها والبيت الذي عاشت فيه، فقد كانت الزيارات بين عائلتينا مستمرة، وكنت اصغي لنازك عندما تقرأ الشعر، واسعد عندما اسمعها تغني وتعزف على العود في ان واحد واجلس صامتة مثل الاخرين عندما تسمعنا الموسيقى الكلاسيكية كنت معجبة بشخصيتها ، بهدوئها بتواضعها، بشاعريتها، بتوجهها لنا، باهتمام الناس بها، كل ذلك كان حببيا الى نفسي، وارتسمت لها في ذهني صورة شاعرية شفافة ظلت تلازمني حتى الان، ان هذه العلاقة الاجتماعية، كما تشير شرارة بين الاسرتين فضلا عما تعيشانه من اجواء ثقافية وادبية متقاربة، جعلتها تلتقي وتصغي بل تعجب وتطري كل هذا الاطراء بنازك، ثم ليكون ذلك من بعد محفزاً قوياً في انتاج هذا الكتاب السيري عنها، يقع الكتاب في مئتين واربع وعشرين صفحة من القطع المتوسط، تغطي حياة الشاعرة من مرحلة الطفولة والصبا والنضوج وبداياتها الاولى مع تجربتها الشعرية وبخاصة صدور ديوانيها الاولين من بعد ذلك، وحتى رحلة دراستها الاكاديمية في جامعة "برنستون" الاميركية وعودتها الى الوطن والاغتراب ثانية حين درست في جامعة الكويت، والعودة مرة اخرى، ثم لتخطو نحو عتبات السبعين من عمرها قبل ان تغادر ارض العراق الى الابد.

الشكل الشعري الجديد

وفي فصل سير الزمن والتضلع بالثقافة، تعرض شرارة ا لى تحولات، اجتماعية واقتصادية مهمة، اما الفصل الذي خصصته شرارة لديواني نازك "عاشقة الليل" الذي كتبت مقدمته اخت الشاعرة احسان الملائكة والصادر عام ١٩٤٧ وشظايا ورماد الصادر عام ١٩٤٩ ، فقد تابعت خلاله الاحداث والهزات والنكبات التي وقعت وعصفت بالمنطقة اعوامئذ، وكان لها كبير الاثر على نفس نازك وقريحتها الشعرية الفتية، وتذكر ايضا تلقف القراء لديوانها الاول وانقسامهم بين معجب ومتعجب لما احتوى من تعبير عن الحزن والكآبة والشؤم، ثم لتشير بعد ذلك الى ولادة اول قصيدة تفعيلة للشاعرة وهي قصيدة الكوليرا والتي اعتمدت على الشطر الشعري بدلا من وحدة البيت الشعري المؤلف من صدر البيت وعجزه، فحين انتشر وباء الكوليرا في مصر وحصد مئات الارواح من الضحايا، حاولت الشاعرة ان تعبر عن حزنها الكبير فكتبت تلك القصيدة وبشكل شعري جديد، وفي ذلك تقول شرارة: وهكذا ولدت اول قصيدة نظمتها في الشعر الحر وهي قصيدة "الكوليرا" التي كتبتها في بحر ساعة ، اثارها الشكل الجديد الذي عبر عن احزانها واخذت تردد:

الموت، الموت، الموت
تشكو البشرية تشكو ما يرتكب
الموت.

رحلة الدراسة وصيف الاحزان

وتتحدث شرارة في فصل "الرحلة الدراسية الاولى"عن امنية الملائكة في حصولها على الزمالة الدراسية التي اهلتها للقبول في جامعة برنستون الاميركية عام ١٩٥٠ /١٩٥١ ومن ثم قبولها في المرحلة الدراسية الثانية ١٩٥٤-١٩٥٦ والتي نالت خلالها درجة

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1783)
السنة السابعة
الخميس (29)
نيسان 2010

فرادة في الابداع وتعدد في النوع

نبيل العطية

الماجستير في الادب المقارن من جامعة وسكونسن ماديسون، وعن بعض تجربتها في الدراسة تنقل الكاتبة هذا المقبوس من مخطوط لمحات من سيرة حياتي وثقافتي للملائكة: وقد اتيحت لي في هذه الفترة الدراسة على اساطين النقد الادبي في الولايات المتحدة مثل: ريتشرد بلاكور، والن داونر ، والنتيت، ودونالد ستاوفر، وديلمور شوارتز وكلهم اساتذة لهم مؤلفات معروفة في النقد الادبي كما عرفوا بابحاثهم في مجلات الجامعات الاميركية وسائر الصحف الادبية.

كما تتابع شرارة الحدث الجلل والذي هز كيان نازك واصابها بفجيعة كبرى الا وهو وفاة والدتها الشاعرة "ام نزار" في لندن صيف عام ١٩٥٣ خاصة وانها كانت مرافقتها في رحلة اللاعودة الى الوطن بحياة التي كتبت عنها نازك قائلة: "ثم عدت بالطائرة الى بغداد وحيدة لا رفيق لي الا الدموع بعد ان دفنت رفيقة سفري الغالية، واستقبلني اهلي يبكون في المطار وكانوا في جزع شديد علي من ان اصاب بانهيار عصبي والواقع انني احتملت العبء في لندن كل الاحتمال وإنما بدا الانهيار عندما وصلنا منزلنا...الخ".

وبعد فاجعة الام التي تركت في نفس نازك عظيم الالم والحزن يتوفى جدها لأبيها في صيف العام ذاته غير انها ما لبثت ان عادت لتمارس حياتها الاجتماعية والثقافية والادبية، فتقول شرارة في صفحاتها عن نازك عامئذ: هكذا مر عام ١٩٥٣ مثقلا بالاحزان والفجيعة من يد الموت الغادرة التي تخطف الاحياء في غفلة من الاهل.. غير ان الزمن كفيل باعادة الحياة الى طبيعتها المألوفة، ودفع الالم الى اركان غائرة غير مرئية في اعماق النفس ، وهكذا بدا كل فرد في العائلة يواصل عيشه السابق وهمومه وطموحه ، عادت نازك الى نشاطها الادبي واستهلت نتاجها الشعري بالحدث الذي هز حياتها وهو موت امها فكتبت (ثلاث مرات لأمي) نظمتها في اب/اغسطس عام ١٩٥٣ لتتنفس به لواعج روحها..

وتتقصى شرارة بأمانتها العلمية المعهودة، الحياة الاجتماعية والفكرية والادبية والاكاديمية للشاعرة نازك بعد عودتها الى الوطن من رحلتها الدراسية الثانية عام ١٩٥٦، حيث تنتقل هي وزوجها الدكتور عبد الهادي محبوبة الى البصرة، لتدرس هناك في قسم اللغة العربية، ثم لتنتخب رئيسة للقسم ذاته، بعد عملها لسنوات تعود الى بغداد عام ١٩٦٨ ثم لتسافر بعد عام الى الكويت حيث تدرس في جامعتها لسنوات طوال حتى احالتها على التقاعد، وخلال الصفحات تتابع شرارة، رحلاتها إلى عواصم اخرى وتتطرق ايضا الى مشاركاتها في المهرجانات الادبية التي كانت تدعى اليها، وتذكر ان عام ١٩٧٤ كان حافلا بالنسبة لنازك، فقد نظمت قصائد كثيرة وعقدت لقاءات مع ادباء وفنانين، كان منها لقاؤها بالفنان الموسيقار محمد عبد الوهاب فضلا عن طبع ديوانها "للصلاة والثورة" وطبع كتابها "الجزيئية في الوطن العربي" كان كل ذلك في فندق بلادون، ثم لتحط رحال اسفارها في دمشق حيث وجهت لها وزارة الثقافة والارشاد السورية دعوة لقضاء يومين في ضيافتها واقامت هناك الامسيات الادبية التي تخللتها قراءات شعرية لبعض من قصائدها المشهورة، تقول شرارة "قالت: سألقي قصيدة حب (ويبقى لنا البحر) فتعالى التصفيق في القاعة وارتسمت البهجة على الوجوه وطافت الابتسامات على الشفاه، ابتسمت نازك بدورها ايضا، فقد ادركت ان الجمهور يهتم بالحب والعواطف اكثر من اهتمامه بقضية فلسطين... تلتها قصائد اخرى "الملكة والبستان" و"رحلة على اوتار العود" وهي من قصائدها الجميلة التي تحبها وتجمع فيها بين الموسيقى والله والقران.. كانت اخر قصيدة لها "دكان القرائيين الصغيرة" وفيها تسير الشاعرة في جو من الحلم في الاسواق الشرقية.. كانت تسأل العابرين عن مكان الدكان الذي تباع فيه القرائين الصغيرة وأرشدوها الى دكان اسمه مندلي، وظلت تبحث عنه دون جدوى ولم تستطع ان تهتدي اليه ابدا، ويسافر حبيبها دون ان تقدم القرآن الصغير هدية له، فما ان نزلت عن خشبة المسرح ومشت على السلم حتى تقدم منها الشاعر احمد سليمان الاحمد، ومد يده لها وقال تفضلي، نظرت الى ما في يده فرأت قرانا صغيرا يقدمه لها...شكرته وقالت له: ما اروع هذا، لقد عثرت على دكان مندلي اخيراً".

وتتابع شرارة في الصفحات الاخيرة من كتابها تقدم العمر بالشاعرة نازك الملائكة وما له من تأثيرات سلبية على حالتها الصحية، فضلا عن ذلك تراكمت هموم الحياة اليومية الخاصة منها او العامة،واخذت في هذه الفترة تتوالى عليها الدعوات لمؤتمرات ادبية وثقافية لم تلب اكثرها، وتحقق نازك حلمها بعد سنوات طوال من الغربة والتنقل والترحال والاسفار، حيث تشتري لها بعد كل ذلك داراً في بغداد..

وتذكر شرارة ان جامعة البصرة منحت الملائكة في حزيران عام ١٩٩٢ ، شهادة الدكتوراه الفخرية تقديرا منها لمكانتها الشعرية ولعملها في جامعة البصرة لبضع سنوات عند بداية تأسيسها في ستينيات القرن الماضي، والمفارقة التي لابد من ذكرها كما ارى، ان الراحلة حياة شرارة كانت قد انتهت من تأليف كتابها هذا في تموز من العام نفسه.

تبقى ملاحظة مهمة ولابد من سوقها، هي ان كتاب "صفحات من حياة نازك الملائكة يعد مرجعا امينا ومهما ليس في تتبع حياة الرائدة نازك الملائكة وانما يعد ايضا مرجعا مهما للكثير من الاحداث الاجتماعية والسياسية والثقافية التي مرت على المجتمع العراقي طوال اكثر من ستة عقود.

لقد دونت الراحلة شرارة كل ذلك وفق رؤية منهجية علمية عميقة وواضحة.

في الاول من اب عام ١٩٩٧ غادرت الحياة كاتبة عراقية قديرة، واستاذة جامعية بارزة، تلك هي الدكتورة حياة شرارة، غير ان مما يؤسف عليه انها فارقت الساحة الثقافية بطريقة غير تقليدية، وبأسلوب مأساوي هو الانتحار..لقد كانت حياة في سلوكها الاجتماعي، وتوجهها الثقافي، وانتاجها العلمي، ورؤيتها الحياتية ضد النزعة الظلامية مؤمنة بالانسان وحتمية انتصاره، كما كانت مفعمة الاحساس بالمستقبل الزاهر، ولكن الظروف وقساوة الطغيان، وثقل الحصار، كل ذلك اضعف روح المقاومة لديها، وهذا هو الذي كان...يمتاز انتاج حياة بالتنوع، فقد كتبت: الرواية، القصة، الدراسة، المقالة والترجمة، كما انها زاولت (التحقيق) ونظمت الشعر، ومع تعدد المناحي الثقافية، واختلاف منابعها سعة في الثراء، وعمق في الغنى، وظني في تفسير هذا يرجع الى نشأتها الادبية، فقد عاشت في بيئة يؤمها الشاعر والقاص على حد سواء، وكان والدها المرحوم محمد شرارة نفسه شاعرا كبيرا اسمعها الكثير من شعره، كما كان ذا مجلس ادبي عامر يحضره عمالقة الشعر كالجواهري ، السياب والبياتي ، في هذه الاجواء الزاخرة بالادب، والشعر والثقافة ازدهرت شخصيتها ونمت فأحبت الشعر وحفظت عيونه، وآمنت بالكتاب وسيلة ابداعية، وبالثقافة منهجا حياتيا، كان ذلك منذ نعومة الاظفار ، وسغر الجدائل، وطراوة العقل، وطفولة المخيلة.

وسمحت الحياة لحياة ان تسافر الى روسيا، بلد الراوية والقصة القصيرة بلد دستوفسكي ، بوشكن، انطوان تشيخوف، تولستوي وغوركي، والرعيل الاول من عمالقة الثقافة لدراسة الادب الروسي عامة وتولستوي خاصة.

حياة والدراسات الادبية: وحياة دراسة عميقة، ودراستها قائمة على التحليل والغوص الجاد وراء الظواهر، وفحص مفردات المنجز الابداعي بطريقة اخاذة، يتضح ذلك في كتابها، تولستوي فنانا" فقد درست هذا الكاتب الكبير بعناية تامة، معبرة عن مقدرة في الاستقصاء.. وجمالية في الطرح، ونظير ذلك كتابها "الادب الروسي في القرن التاسع عشر" الذي ينطوي على دراسة حياة مجموعة من اعاظم الكتاب الروس بشكل جذاب مع تحيلات ادبية موضوعية لتلك الشخصيات، على ان اهتمامها بالادب الروسي لم يصرفها عن الالتفات الى دراسة حياة شاعرة كبيرة هي نازم الملائكة، فكان كتباها صفحات من حياة شاعرة كبيرة هي نازك الملائكة فكان كتابها صفحات من حياة نازك الملائكة الصادر ببيروت عام ١٩٩٤ دليلا على ذلك.

حياة والرواية:وتأتي روايتها "اذا الايام اغسقت" الصادرة بعد وفاتها بمراجعة وتقديم شقيقتها الاديبة بلقيس شرارة لتعبر عن معاناة الاستاذ الجامعي في ظل النظام السابق، والمواجهات الحادة التي اضطر الى خوضها، وبالرغم من ترهل هذه الرواية واغراقها بفيض من التفاصيل غير الضرورية ، بمعنى انه كان بالامكان الاقتصاد في حجمها مع سلامة المنهج، ووضوح الرؤية ، بيد ان حياة لم تفعل ذلك لحرصها الشديد على ادانة هذا النظام باوسع ما يمكن من الكلمات، واقوى ما تستطيع ، مفضلة سيادة النزعة الفوتوغرافية مع الايضاح المبسط على وجازة الالفاظ وابهامية المحتوى!

حياة والترجمة

وتعد حياة من دون مبالغة واحدة من احذق المترجمين العراقيين: سلامة في المنهج الترجمين ودقة في نقل النص مع اضفاء الطابع الحيوي على النسيج اللغوي الجديد، وعكست اهتمامها في هذا الميدان ترجمتها كتاب "فن الترجمة" لـ (ك سورينيان) و(س.فلورين) و(فل روسيلي) الصادر ببغداد عام ١٩٧٩ يتضمن هذا الكتاب مجموعة من التجارب الغنية في حقل الترجمة التي لاغنى للقراء عنها، وفي مقدمتها له أبانت عن مفهومها للترجمة بوصفها علما للتعارف، والتقارب، والتفاهم والتفاعل بين الشعوب وثقافتها لا "مجرد نقل افكار، بل هي بالدرجة الاولى، – عملية ابداعية".. وشبيه بهذا ترجمتها لـ "تشيخوف بين القصة والمسرح" لمجموعة من الكتاب ، صدر هذا الكتاب ببيروت عام ١٩٧٥، ولغة هذه الترجمة صافية واسلوبها شائق..

حياة والمقالة:

وحياة مقالية ممتازة واسلوبها في "المقالة" دال على ضلاعة وتمكن،وجل ماكتبته متعلق بروايات روسية كرواية بوشكن "يفغيني انيغن، وتورغنيف،الاباء وابنون وغوغول ، الارواح الميتة، الى جانب موضوعات اخرى، من نحو مقالها عن المرأة بين روايتي زقاق المدق، والنخلة والجيران ويسنين من الربوع العربية وسواها في المقالات.. حياة والتحقيق ولتوطد علم التحقيق في ادبنا العربي، وتقديرا ووفاء لعبقرية والدها فقد حققت كتابه المتنبي بين البطولة والاغتراب، كما حققت كتابه نظرات في تراثنا القومي، وقد بدت حياة في كلا العملين محققة مقتصدة في استخدام "الحواشي" فلا ترهل في الشرح ولا اسراف في التعليق، وبهذه الطريقة انتمت حياة الى المدرسة الحديثة التي تعنى بتوثيق النص، وكشف غوامضه بايجاز ودقة!

حياة والشعر:

ليس غريبا ان تكتب حياة الشعر وقد تربت في احضان بيئة شعرية ،ورعاها شاعر كبير هو والدها محمد شرارة ، لحياة ديوانان اثنان هما"قصائد قديمة ، وشفق الفجر"، لم ينشرا كما اعلمتنا شقيقتها بلقيس، ان اديبة مرهفة الحس غنية بالمواهب لابد ان تكتب الشعر الجيد المفعم بالموسيقى والنغم العذب....واخيرا لقد خسرت الساحة الادبية العراقية والعربية اديبة ناشطة وظفت قدراتها في خدمة الثقافة التقدمية وادبها الحي، واسهمت بفاعلية في كشف إفلاس النظام الدكتاتوري، وفضح اساليبه وممارساته القمعية، وبذلك اصطفت الى جانب كل الادباء الوطنيين ممن جعلوا الكلمة النيرة هدفهم الاسمى.

العراقيون
من زمن التوهج
العدد (1783)
السنة السابعة
الخميس (29)
نيسان 2010

حياة شرارة وفن الترجمة

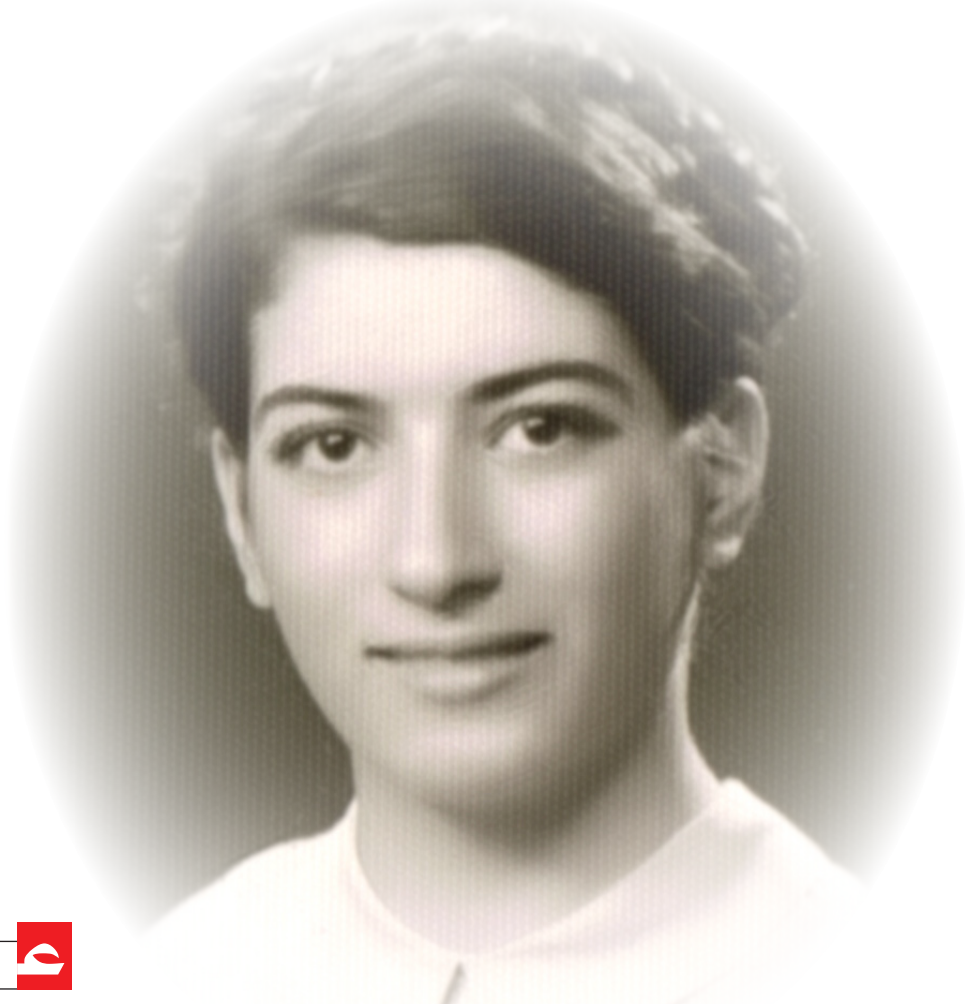

عبد الهادي فنجان

لقد اختارت الدكتورة حياة شرارة هذا العنوان لترجمة كتاب "فن الترجمة" اما المضمون فكان ثلاث مقالات لثلاثة كتاب ومترجمين افذاذ هم: الارمني ك. سورينيان والكاتب البلغاري فلورين والكاتب السوفيتي روسيلس. وقد اضفنا للعنوان كلمة الفرسان الثلاثة لما لهؤلاء الكتاب الثلاثة من قوة تأثير ولما تركوه من اثار متميزة في مقالاتهم واثارهم الثقافية.

لقد كانت كلمة التقديم في هذا الكتاب علمية مما حدى بنا إن نستخلص منها الكثير لننير الطريق امام القراء او اصحاب الاختصاص وطلبة اقسام الترجمة في جامعاتنا عند انبثاق هذا الفجر الجديد فجر حضارة العراق القادم.

"فليس المترجم الجيد من يترجم من لغة لأخرى بل من يمتلك مدى رحبا للعمل فهو يترجم تفكيرا لغويا معينا الى تفكير مغاير، ومن مجموعة معقدة الى مجموعة معقدة اخرى ولا يقتصر على نقل المدلول الدقيق انما النبرة والايقاع والوتيرة والنغمة وبكلمة اخرى: اللون العاطفي الفردي المكثف للنتاج الفني فهو يترجم الاسلوب وروح النتاج الادبي عبر الادوات اللغوية".

المقالة الاولى للكاتب الارمني سورينيان يتعرض فيها لتجربته في ترجمة رواية "الاخوة كارامازوف" للكاتب الروسي دستويفسكي. والمقالة اضافة الى دخولها في باب نظرية الترجمة الا انها تنطوي على ملاحظات نقدية فيما يخص تجربته في النقد والترجمة. وبالرغم من كل الملاحظات الابداعية التي صاغها ونقله للتجربة التي خاضها الا انه كان يغالي بعض الشيء في مهمة المترجم حتى لقد وصل به الامر إن يصرح بأنه لهدف إن يترجم لدستويفسكي قبل بالذهاب للدورات الادبية العليا في موسكو باعتباره كاتبا وعضوا في اتحاد الكتاب " وذهبت لهذه الدورات لغرض العيش في موسكو والاختلاط بالروس والتشبع بقدر الامكان بروح الشعب الروسي والتعرف على معيشته وعاداته والاحاطة بالسمات المميزة للفرد الروسي

ليس المترجم الجيد من يترجم من لغة لأخرى بل من يمتلك مدى رحبا للعمل فهو يترجم تفكيرا لغويا معينا الى تفكير مغاير، ومن مجموعة معقدة الى مجموعة معقدة اخرى ولا يقتصر على نقل المدلول الدقيق انما النبرة والايقاع والوتيرة والنغمة وبكلمة اخرى: اللون العاطفي الفردي المكثف للنتاج الفني فهو يترجم الاسلوب وروح النتاج الادبي عبر الادوات اللغوية".

وسماع جزيئات اللغة الروسية ودراستها سمعيا اضافة الى ناظري".

ومما يسجل له كمترجم مبدع او ككاتب، ملاحظاته الدقيقة والشيقة حيث يعتبر الترجمة "لحظة سيكولوجية معينة "كما انه يعتبر" الترجمة الفنية – عملية ابداعية" حتى لقد وصل به الاعتقاد بان المترجم "يجب إن يشعر بأنه هو الذي يقوم بكتابة هذا النتاج "كما انه يعتبر افضل ترجمة" هي التي تنسي القارئ بانه يقرأ كتابا مترجما".

هنالك الكثير من الملاحظات التي تتعدى عملية الترجمة الى النقد والتشكيل والموسيقى وعلاقة هذه الفنون بفن الترجمة.

اما المقالة الثانية للكاتب البلغاري فلورين فهو يتعرض فيها لأهمية استعمال المعاجم مهما تمكن المترجم من اللغات التي يترجم منها واليها فيقول: "مترجم الادب الفني الذي يترجم بدون استعمال المعجم، ليس مترجما على العموم" وهو بالاضافة الى تركيزه على استخدام المعاجم يتفق مع سورينيان على إن الترجمة هي عملية ابداعية اضافة الى تشكيلها اسهاما في الادب الوطني وفي الثقافة لشعبه.

مما لا شك فيه إن على المترجم إن يمتلك زمام اللغة التي يترجم منها وان يكون على اطلاع واسع باللغة التي يترجم اليها وبالرغم من ذلك يتحتم عليه إن يجعل القاموس ملازما له والهدف من ذلك هو "ايجاد الجملة المرادفة لتلك الجملة في الحالة الراهنة".

"ولا يستثنى من ذلك سوى بضع كلمات وعبارات منفردة تتخطى حدود المعارف اللغوية و الثقافة العامة".

هنالك الكثير من الامور التي تخص فن الترجمة طرحت في هذه المقالة ولكنه ركز بشكل رئيس على عملية استعمال المترجم للقواميس حتى لقد اعتبر إن القاموس هو احد اسلحة المترجم "ولا بد من استخدام مختلف الاسلحة عند الاشتراك في المعركة".

لقد اضاف س. فلورين مجموعة كبيرة من المعاجم الى مائدة المترجم لمساعدته في سبر غور عالم الترجمة الواسع حيث اضاف معجم التكنيك والموسيقى والتجارة والفلسفة والطب والكيمياء ومعاجم الاصطلاحات والتاريخ والجغرافيا والموسوعات الادبية ومعاجم اللهجة العامية والمختصرات والالفاظ.

إن مما لا شك فيه إن هذه المجموعة تتضمن فوائد عديدة للمترجم المتنوع وصاحب الافاق الواسعة. اما المترجم المتخصص فلا يحتاج الى هذا الكم الهائل من المعاجم وقد يصدم بها المترجم المبتدئ حيث إن الادب لا يستغني عن المعاجم اللغوية ومعاجم الجمل والمفردات وحتى معاجم الموسوعات الادبية. اما في حالة الترجمة لكتب التاريخ القديم والحديث فيمكننا القيام بالبحث في اماكن غير متوقعة ابدا، في الكتب المساعدة والتعليمية القديمة التي لا يخطر ببال احد التنقيب في بطونها. قد يبدو ذلك غريبا ولكن على مستوى التجربة الشخصية فقد وجدت احد معاني الاسماء التاريخية لاحدى المدن في الوطن العربي في خارطة موجودة في مكتبة المتحف العراقي بعدما يئست من إن اجدها في القواميس المتوفرة في حينها تحت يدي.

وما نستخلصه من هذه المقالة هو إن معجم المترادفات وكذلك معجم المتناظرات او معجم المفاهيم هي مجرد مساعدة غير مباشرة لاستاذ الترجمة الفنية لأنه عندما يقرأ عددا من المفاهيم القريبة او البعيدة يظهر في وعيه قرار حدسي مرضي شأنه شأن تعاقب بضعة كلمات متوافقة متتابعة تفضي بالمشاعر الى القافية الملائمة كذلك تفضي بالمترجم الى المرادفات المتوافقة التي تشبه النغمة الشعرية او الموسيقية المتولدة نتيجة توافق حسي.

ومع ذلك فان كل كتاب جديد وكاتب جديد يضع

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (1783)
السنة السابعة
الخميس (29)
نيسان 2010

المترجم امام قضايا جديدة من حيث الطبيعة اللغوية والاصطلاحات والعبارات والمقاطع والكلمات الرشيقة والقديمة الجديدة والعامية ولا بد -لايجاد المعادل لكل هذا - من استخدام جميع الوسائل المساعدة القائمة اضافة الى الموهبة وسعة الاطلاع وعمق التجربة.

وفي المقالة الثالثة التي ترجمتها الدكتورة بقدرة متميزة يتعرض الكاتب الروسي فل. روسيلس الى حالة اضفاء الطابع القومي على نظرية الترجمة. بالرغم من انه يقنن عملية الترجمة وينظرها الا انه لا يستغنى عن مصطلحات الكتاب والمترجمين الافذاذ فهو يؤكد على "التناول اللغوي المفترض وغير اللغوي". كما يؤكد على " إن النص المترجم ذا هدف محدد وهو نقل النص بالدقة الممكنة ويمتلك المترجم - لتحقيق ذلك - مجموعة من الطرق ابتداء من التطابق المطلق - حينما يواجهه اصطلاح او حادثة متشابهة اخرى - او بواسطة النقل "المباشر" او "المجازي" او "الاستبدال" او "المعادل" "وحتى تغيير المواقع".

إن هذه المعادلات التي تكاد إن تكون رياضية فيها الكثير من الدقة والحيوية وقد اشتملت على اضافات متميزة على كل ما كان متعارفا عليه في نظريات او قواعد الترجمة.

ويضيف روسيلس "لا يمكن لجهود المترجم الجبارة السيطرة على اسلوب الكاتب ونوازعه اضافة الى عدم استطاعته نقل مدلول كلمة الكتاب المترجم بمعناه الحقيقي اذا لم يمتلك الاحساس بايقاع العبارة وطبقا لرأي الكاتب يصبح "الايقاع" جوهريا، اساس كل كلام سواء "أكان شعريا او فنيا فهو الشكل الرئيسي الذي تتجلى عبره الافكار والعواطف الانسانية بواسطة اللغة".

ليست المسافة بين الاحساس والتحليل قليلة وهنا تكمن معاناة المترجم فكلما استطاع إن يقرب المسافة بين الاحساس والتحليل وبطريقة ذكية كلما قرب القارئ من احاسيس الكاتب واهدافه.

هناك اقتراحات في اخر المقال حول ارسال الشباب النابهين لفترة طويلة الى البلدان التي يترجمون لغاتها وهذا المقترح يلتقي مع تجربة الكاتب والمترجم الارمني القدير سورينيان. ثم هناك اقتراح ثان بترجمة اساطين الادب والثقافة والفكر وحسب تعبيره "حتى لوكانت عديمة الفائدة ولكنها تغني لغتنا وامكاناتنا التعبيرية".

ويختم روسيلس مقالته بكلمات رائعة ودقيقة حيث يقول "يتجلى ابداع المترجم في مضمار الفن بالامانة للاصل برمته".

لقد تجلت قدرة الترجمة والابداع العلمي لدى الدكتورة حياة هنا في هذا المكان حيث استطاعت إن تقدم عصارة ما كتب في دول اوربا الشرقية قبل إن يحدث الانقلاب الذي اودى بجدار برلين والتقت الثقافة الأوربية بشقيها الشرقي والغربي لتدخل سوية الى عالم الكومبيوتر والانترنيت من اجل ولادات علمية وتقنيات حديثة حبذا لو كافحنا من اجل الحصول على جزء بسيط منها.

لقد اجتازت الترجمة مراحل عديدة منذ ترجم هذا الكتاب القيم ولحد الان فلقد وصلت الترجمة الفورية الى مراحل متقدمة جدا. كما دخل الكومبيوتر عالم الترجمة واحدث فيها ثورة لا اعتقد إن رجال الترجمة الآن يستطيعون اللحاق بها ولكن هناك مضامير كثيرة لا يمكن لاي جهاز متطور إن يصل اليها وهي التي تخص احساس المترجم بالنص فكل اجهزة الكومبيوتر لا يمكن إن تصل الى القنوات الخاصة التي توصل احساس المترجم وروح اللغة التي تنبض في الكتاب.

من أشعل النار فيها؟

سميرة الوردي

بخضرة تلك الغابات وجبالها وبالوديان وضفاف النهرين حلمت خارجة من بطون التاريخ، حاملة اسفارها، تجوب الارض شرقا وغربا لاتحدها حدود، توق ان تفوز بالعلم وان تتخرج بدرجة عالية تؤهلها للارتقاء بحياتها الى اقصى ما تريد، تحقق حلمها بالرغم من قسوة الظروف التي احاطت نشأتها الاولى، عرفتها كما عرفت اخريات من خلال وقائع يرويها ابي بفخر واعتزاز ، لتنعكس عندي كأسطورة رومانسية تصوغ حياتي ، كان معجبا بكثير من النساء اللواتي كسرن قيودهن ليكن قدوة ومثالا يحتذى بهن في بناء ثقافة ووعي مجتمعين كروزا لوكسمبرغ وجان دارك، يفتخر بنسائنا اللواتي اسهمن كالرجال في العمل السياسي والثقافي ، يذكرهن امامي وكأنه يتمنى ان اكون مثلهن، كثيرا من النسوة المناضلات عرفتهن بوعي دون ان اراهن أو قد اكون شاهدتهن في محفل وظلت ذكراهن عالقة في خيالي على مر السنين..كثيرا ما تردد في داخلي، اسم حياة شرارة، لا ادري ما الذي يربطني بها، اعرفها ولا اعرفها حتى عثرت في يوم من الايام على كتاب لهم في النقد مترجم عن الروسية، وجهها اليف في ناظري، وكأني اعرفها منذ زمن طويل، وما ان قرأت سيرتها حتى وجدت ان ما يربطني بها اشياء كثيرة، مرت سنون مثقلات بالدم والجوع والغضب وسمعت خبرا لم اصدقه في حينها، الاديبة الكبيرة والتي نالت الدكتوراه بجهودها وذكائها وتبوأت مكانة علمية راقية تنتحر حرقا وتحرق معها ابنتيها،ويشاء القدر ان تنجو احدى البنتين.

مر الخبر مرور الكرام وكل عراقي محمل بهمه. ادركت حينها ان حياة احرقت وابنتيها ولم تنتحر كما اراد الطغاة ايهام الناس.

المنتحر شخص ضعيف مريض نفسيا اما حياة فهي تلك المناضلة الجسور التي لا تحنيها المحن ولا تذلها المصاعب ومرت السنون واذا بي اجد كتابا لها تحت عنوان (اذا الايام اغسقت) كتاب جسدت فيه حياة المأساة الحقيقية التي وقع الشعب العراقي تحت وطأتها والتي لم يدركها اخواننا العرب، لأنهم لم يذوقوها بالرغم من رداءة حكامهم وقسوتهم، جسدت فيه ممارسات القمع اليومية التي مارسها النظام لإذلال الناس في لقمتهم اليومية، مَن من اخواننا العرب ادرك ما عاناه العراقيون بكل فئاتهم في ادق تفاصيل حياتهم ابتداء من وقوفهم فجرا طوابير على المخابز التي قد يظفرون منها بأرغفة معدودة وقد يرجعون خائبين يقضون يومهم بقدرة قادر انتهاء بمسائهم المظلم البارد.

بين يدي الطبعة الثانية من الكتاب في عام ٢٠٠٢ والمقدمة كتبت عام ١٩٩٩ أي قبل سقوط النظام باربعة اعوام وكان موتها في ١ اب عام ١٩٩٧، إشاعات كثيرة روجت قبل انتحار حياة كقتل امرأة لابنائها كي يستطيعوا ملأ بطونهم.

من عاش تلك الفترة لايستغرب من هذه الاشاعات بل الادهى اصاب بعض الناس القلق والخوف من ان يموتوا فلا يجد اهاليهم ثمنا لاكفانهم ، حتى لو افترضنا جدلا انها انتحرت فهل يعقل ان تقتل ابنتيها بتلك الطريقة الجنونية التي لامثيل لها في قسوتها وهي المثقفة الحالمة المترجمة لأرق شعراء وادباء الادب الروسي، لماذا تختار الحرق وهو الاقسى بين طرق الانتحار ولا تختار الموت بالسم مثلا، وكيف احرقت ابنتيها واحرقت نفسها لتنجو احدى البنتين بعد ذلك، اسئلة كثار لاتجد جوابا، كل من وصل لسدة الحكم مجد قتلاه والاصح شهداءه واقيمت مراكز وهيأت ومحاريب لهم وكأنهم في كون آخر وليس كل العراقيين شهداء بأيدي النظام وجلاوزته، فمن يمجد حياة شرارة ويبني محرابا لها؟

حياة شرارة ممنوعة من السفر

غير أن القدرة على مغادرة البؤس في العراق كانت تتطلب مالاً. كان استخراج جواز السفر يتكلف ٤٠٠ ألف دينار، بينما كان الأجر الشهري المعتاد يبلغ ما بين ألفين وثلاثة آلاف دينار.

لكن المال لم يكن كل شيء. كانت حياة شرارة استاذة للغة الروسية في جامعة بغداد. ، مؤلفة لكتب عديدة، وكانت متزوجة محمد سميسم الذي كان جراح عظام بارزا في مستشفى الواسطي وصديقا عزيزا علي. في عام ١٩٨٩ مات الرجل بالسكتة الدماغية، وبمرور الوقت شق عليها أن تعيش هي وابنتاها من مرتب الجامعة المأساوي. شعرت بضرورة عودتها إلى لبنان حتى يمكنها أن تحافظ على مستوى معيشة شبه إنساني لها ولبنتيها.

عندما توجهت حياة إلى إدارة الجوازات في بغداد رفضت إعطاءها تصريحا بالسفر إلى الخارج؛ فبناء على الشريعة الإسلامية التي كانت مرجعا لهم لم يكن مسموحا للمرأة أن تغادر البلاد من دون مرافقة محرم. غير أن هذه الأستاذة الجامعية لم يعد لها في العراق بعد وفاة زوجها أحد.

لكي أساعدها طلبت لقاء أخ الرئيس غير الشقيق وطبان التكريتي الذي كان في أثناء ذلك قد ترك منصبه كرئيس لإدارة شكاوى الرئيس ليرتقي إلى منصب وزير الداخلية. غير أن اللقاء معه لم يكلل بالنجاح.

قال لي: «القانون واضح، ولابد أن التزم به».

لذلك ساعدت السيدة الأستاذة الدكتورة شرارة في كتابة خطاب لصدام انتهى به المطاف كالعادة إلى دائرة الشكاوى في القصر الجمهوري. غير أن هذا الخطاب لم يساعدها في شيء، فالمسؤول عن فحص الشكاوى لم يجد الأمر ملحا، ولذلك لم يصعد الخطاب إلى صدام. كان على حياة شرارة أن تستمر في الإقامة في بغداد لأنها لم يعد لها رجل يمكنه أن يرافقها إلى خارج البلاد. بعدها بعدة أشهر علمت أنها أخذت ابنتيها معها إلى الحمام، حيث قامت بإحكام سد فتحة التهوية، والنوافذ، والباب، وفتحت اسطوانة الغاز الموجودة في المطبخ. نجت واحدة من ابنتيها. فعندما سقطت أمها واختها على الأرض عادت إلى رشدها، وقررت أن تواصل الحياة.

د. علاء بشير كتاب كنت طبيبا لصدام

عراقيون من زمن التوهج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

التحرير : علي حسين

التصميم : نصير سليم

الاشراف اللغوي : يونس الخطيب